الجامعة الأردنية
كلية الدراسات العليا

"القصائد المُنَصِّفات في الشعر العربي
من العصر الجاهلي إلى آخر العصر الأموي"

إعداد
عبد السلام عبد المجيد عبد السلام المحتسب

بإشراف
الأستاذ/ الدكتور حسين عطوان

"قدمت هذه الرسالة استكمالاً لمتطلبات نيل درجة الماجستير في تخصص اللغة العربية وآدابها من كلية الدراسات العليا بالجامعة الأردنية"

١٩٩١ - ١٩٩٢م

عميد كلية الدراسات العليا

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

نوقشت هذه الرسالة بتاريخ ٤/ ١٠/ ١٩٩٢ وأجيزت من قبل لجنة المناقشة :

١. الأستاذ الدكتور حسين عطوان (المشرف) رئيسا

٢. الأستاذ الدكتور عبد الكريم خليفة عضوا

٣. الأستاذ الدكتور نصرت عبد الرحمن عضوا

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

فهرست الموضوعات

الموضوع	الصفحة
ـ مقدّمة :	أ ـ هـ
ـ الفصل الأوّل : تاريخ القصائد المنصفات وتطوّرها :	١ ـ ٣١
المعنى اللغوي للإنصاف :	٢
المفهوم الأدبي للمنصفات :	٧
نشأة المنصفات :	١٢
تطوّر المنصفات:	٢٠
ـ الفصل الثاني : المقوّمات الموضوعية والفنّية للقصائد المنصفات:	٣٢ ـ ٥٦
المقوّمات الموضوعيّة للمنصفات :	٣٣
السمات الفنّية للمنصفات :	٤٣
ـ الفصل الثالث : أبرز شعراء القصائد المنصفات :	٥٧ ـ ٧٨
المفضّل النكّاري:	٥٨
العبّاس بن مرداس السّلمي :	٦٤
كعب بن معدان الأشقري:	٧١
ـ الفصل الرابع : موازنة بين القصائد المنصفات والقصائد الموثّبات :	٧٩ ـ ٩٩
المعنى اللغوي للتّوثيب :	٨٠
نشأة الموثّبات ومفهومها الأدبي :	٨١
المقوّمات الموضوعيّة للموثّبات :	٩٣
السمات الفنّية للموثّبات :	٩٧
ـ الخاتمة :	١٠٠
ـ مصادر البحث ومراجعه :	١٠٤
ـ ملخّص البحث باللّغة الانجليزية :	

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ملخّص البحث

موضوع البحث هو "القصائد المنصفات في الشعر العربي من العصر الجاهلي إلى آخر العصر الأموي"، وهي تعني القصائد التي أنصف قائلوها فيها أعداءهم، وصدقوا عنهم وعن أنفسهم فيما اصطلوه من حرّ اللقاء، وفيما وصفوه من أحوالهم في إمحاض الإخاء.

ويمثّل هذا الموضوع الجانب الخلقي في شعر الحماسة والفروسية، وهو موضوع محدود في الأدب العربي، لأنّ ما وصل إلينا من شعر الانصاف قليل، ومن عرفنا من الشعراء المنصفين غير كثيرين، ولعلّ مردّ ذلك إلى أنّ الإنصاف في حياة العرب شيء نادر، خاصة عندما تضع الحرب أوزارها، فيفقد الرجل أخاه أو ابن عمّته، وتفقد المرأة زوجها، وتثكل الأمّ ابنها، فتتفجّر الأحقاد في نفوسهم على قتلاهم، ووسط هذا يغيب الإنصاف.

وقد نبّه الجاحظ (في كتابه البيان والتبيين، الجزء الرابع، ص: ٢٣) إلى أهمية القصائد المنصفات إذ قال: "أدركت رواة المسجديّين والمربديّين ومن لم يَرْوِ ... الأشعار المنصفة، فإنّهم كانوا لا يعدّونه من الرّواة"، وهي مع ذلك قصائد قليلة نادرة متناثرة في بطون المختارات ودواوين الحماسة والشعر العربي.

ولا نستطيع أن نحدّد تاريخ نشأة المنصفات، وأمّا ما يروى أنّ أوّل من أنصف في شعره هو المهلهل بن ربيعة التغلبي في حرب البسوس، وذلك قوله:

كأنّا غدوة وبني أبينا بجنب عنيزة رحيا مدير

فهو ليس صحيحا، فقد سبقه شعراء آخرون تقدّموه في الزمن. ويمكن القول إنّ القصائد المنصفات ولدت في الجاهليّة واستمرّت بعده.

تعدّ الوقائع الحربيّة أبرز عناصر القصائد المنصفات، فبعد انتهاء المعركة يعنى الشاعر بذكر هذه الوقائع وتسجيلها. ويقوده إلى هذا المفاخرة، فيفزع إلى أمجاد قبيلته الحربية يفخر بها، وهو في الوقت نفسه، لا ينسى نصيب أعدائه وخصومه من هذه الأمجاد فيذكرها لهم إنصافا وعدلا. ومن عناصرها أيضا المآثر والصفات الخلقية التي يتميّز بها قوم الشاعر وخصومهم، وتتمثّل هذه المآثر في الفروسية والشجاعة والصبر والكرم والحلم ورحابة الصدر. كما كان ذكر النسب ومكانة الفارس في قومه من عناصر القصائد المنصفات.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وتحتلّ القصائد المنصفات منزلة متقدمة بين أشعار شعرائها موضوعيا وفنيا . فمن حيث الأغراض نراها جاءت وسطا بين غرضين من أغراض الشعر عندهم وهما الفخر والمدح ؛ فقد شاع الفخر في شعر العبّاس بن مرداس السلمي ، ولكنه عندما يفتخر بقومه فإنه لا ينسى خصومهم، فلا يرميهم بالمروق والجبن ، بل يصفهم بالشجاعة والبلاء الحسن ، مع أنّه كان يعدل في آخر القصيدة عن الإنصاف إلى الفخر . وشاع المدح في شعر كعب بن معدان الأشقري ، ولكنّه عندما يمدح قومه لا يتجاهل خصومهم في ذلك المدح ، فكان ينصفهم اعترافا منه بشجاعتهم وبطولتهم وإشادةً بمآثرهم التي شهدها في مواطن القتال ، مع أنّه كان يعدل في آخر القصيدة عن الإنصاف إلى المدح . ومن الناحية الفنية ، فإنّها تعدّ في مستوى باقي أشعار شعراء القصائد المنصفات إنْ لم تتقدّم عليها .

القصائد الموثّبات هي القصائد التي كانت النساء تقولها لإثارة المقاتلين واستنهاض هممهم وشحذها وتحريضهم على القتال تجديدا لعزائمهم وبعثا لروح القتال فيهم للمضيّ نحو النصر . وهي تستخدم في مخاطبتها لهم ما يلهب حماسهم ، فيهبّ قومها جميعهم لتلبية ندائها ، وقد تضمنت الموثّبات معاني إثارة حمية القوم ، وذلك عن طريق الإكثار من ترديد كلمات الشرف والكرامة والإباء والعزّة والذل والخزي والعار .

وتتّسم الموثّبات بالسرعة والحركة والاضطراب ، إذْ تتطلّب من صاحباتها سرعة في القول وسرعة في الإيصال وعدم المبالغة والإسراف في الوصف ، إذْ أنّ هذه الأشعار وليدة لحظتها وبنت ساعتها ، لذلك فإنّه لم يتح لشواعر الموثّبات أن يجوّدن أشعارهنّ وينقّحنها ، لأنّه كان من الصعوبة بمكان أن يلتفتن إلى الصنعة الفنية . ومن أين يأتيهنّ ذلك الخيال أو تلك الصنعة وهنّ في أرض المعركة ، وسط أصوات الرماح وقعقعة السيوف ! ؟ لذلك فقد جاء هذا الضرب أقرب إلى الارتجال والنظم منه إلى الفنّ الشعري .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

تعود صلتي بالموضوع إلى دراستي الجامعيّة الأولى ، فقد كنت أشعر أثناءها برغبة قويّة لدراسة هذا الموضوع ، وتتبّع جوانبه ، دون معرفة أبعاده المُفْضية اليه . فكان يستهويني ، أثناء دراستي للأدب العربي ، صورةُ إجلال البطولة وإكبارها في الخصم ، وذلك عندما يصف شاعر معركةً بين قومه وخصومه ، كان يقدّر فيها خصمه ، فلايرميه بالجبن والعار ، وإنّما يصفه بالبطولة والإقدام ، سواءٌكان سبيل ذلك الوصف ، فخراً ذاتيّا على قومه عندما ينتصر ، بأنّه لم يتغلّب على خوّار ضعيف ، بل تغلّب على فارس مثله ، أم كان تسويغا لهزيمته وفراره أمام خصمه ، بأنّه لم يُهْزَمْ أمام مقاتل عاديّ ، بل هزمه فارس مغوار .

وحين كنت أفكّر في موضوع أُعدّه لنيل درجة الماجستير ، تَرامَى إليّ نبأُ وجود قصائد ، يصف قائلوها فيها قومهم وخصومهم على السّواء تُسمّى المنصفات ، فوجدت الرغبة تتحقّق في هذا الموضوع والأمل ينعقد في تناوله ، فعكفتُ على كتب المختارات ودواوين الحماسة ، فاستقرأتها جميعها ، ثم استقرأت دواوين شعراء الجاهلية وصدر الاسلام والعصر الأموي .

وقد اخترتُ هذا الموضوع لأهمّيته في التراث العربي القديم ، فهو يكشف عن ذلك الجانب الخُلُقيّ الحميد في شعر الحماسة والفروسية ، وهو جانب قيّم يُوضّح خطّاً عريضا في الأدب العربي ، سار عليه عدد قليل من الشعراء ، لم يسلكوا مسلك الفخر المحض والهجاء في أشعارهم ، وإنما سلكوا مسلك الصدق والعدل والإنصاف ، فالقصائد المنصفات في الشعر العربي غير كثيرة ، وتبرز قيمتها في مضمونها ، لا في عددها .

ويسعى البحث إلى تتبّع الإنصاف في الشعر العربي من العصر الجاهلي إلى آخر العصر الأموي ، وسبر أغواره ، ومعرفة أثره في الأدب العربي .

وقد واجهتُ ، منذ شرعت في البحث ، صعوبات جمّة ، أهمّها ندرة الموضوع وقلّة مادّته ، فالمنصفات غير محصورة في كتاب ، وغيرُ منضوية تحت باب واحد من أبواب شعر الحرب ، وإنّما هي مبثوثة في كتب المختارات والحماسات ودواوين الشعراء ، ممّا دفعني إلى توسيع فترة الدراسة لتشمل عصر صدر الاسلام والعصر الأموي ، بعد أن كانت مقتصرة على العصر الجاهلي ، وذلك لرؤية صورة واضحة لهذا الفن الحربيّ الذي نشأ في العصر الجاهلي واستمر بعده .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وقد قسّمتُ البحث الى أربعة فصول ، أفردت الفصل الأول منه للحديث عن تاريخ القصائد المنصفات وتطوّرها في الشعر العربيّ ، وكان ذلك على النحو التالـــي :

أولا : ذكرت مفهوم الإنصاف عند علماء اللغة ، وبيّنت أهميته في تاريخ العرب والمسلمين ومواقف الشعراء منه في أشعارهـــم .

ثانيا : حدّدتُ المفهوم الأدبي للمنصفات ، وبيّنت قيمتها في الأدب العربي وأهميتها عنـــد رواة الشعـــر .

ثالثا : تحدّثتُ بإيجاز عن نشأة القصائد المنصفات ، وذكرت الأسباب التي دعت إلى ظهورها .

رابعا : تابعتُ تطوّرها بعد الجاهليّة في ظلّ العوامل التي أثّرت فيها موضوعيا وفنّيـــا .

وفي الفصل الثاني درست المقوّمات الموضوعية والفنّيـة للقصائد المنصفات على النحو التالي :

أولا : درست العناصر الموضوعية التي قامت عليها القصائد المنصفات ـ وكانت سببا فـــي قولها ، وربطت صلتنا بالحياة على شكل محاور دارت عليها المنصفـــات .

ثانيا : وقفت وقفة فنّية عند القصائد المنصفات ، فتناولت سماتها الفنّية ، وبيّنت عدم احتفاء شعرائها بالصّنعة الفنية ، لا فرق في ذلك بين بنائها الفني وصورها الشعريّـــة ، واستشهدت على ذلك بالشواهد الشعرية حسبما يقتضي غرض الدراســـة .

وفي الفصل الثالث عرضت لأبرز ثلاثة شعراء من أصحاب القصائد المنصفات ، وهم المفضّل النّكري وهو جاهلي ، والعبّاس بن مرداس السُّلميّ وهو مخضرم ، وكعب بن معدان الأشقري وهو أمويّ ، وتناولت سيرهم وحياتهم ، ومنازلهم الشعرية بين شعراء عصرهم ، ومكانة منصفاتهـــم بين سائر أشعارهـــم .

وفي الفصل الرابع عقدت موازنةً بين القصائد المنصفات والقصائد الموثّبات ، باعتبارهما اتّجاهين من اتجاهات شعر الحرب . وكان ذلك على النحو التالـــي :

أولا : ذكرت معنى التوثيب في المعاجم اللغويـــة .

ثانيا : عرضت بصورة موجزة لنشأة الموثبات ، وذكرت مفهومها الأدبي ، كما عرضت نماذج شعريّة لأشهر شواعر العرب ، فشرحتها وحلّلتُها ، وعقدت موازنةً بين ذينك الاتجاهيـــن ، من حيث زمانُها وأثرها في المعركـــة .

ثالثا : درست المقوّمات الموضوعيّة للموثّبـــات .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

رابعـا : درست سماتها الفنّيـة .

وأتبعت البحث خاتمة ضمّنتها نتائجه ، وبثبت لمصادره ومراجعه . وقد تعدّدت مصادر البحث وتنوّعت ، فمنها المعاجم اللغوية التي أفدت منها فائدة كبيرة في التعريف بمفاهيم البحث، وهي الصحاح للجوهري ، وأساس البلاغة للزمخشري ، ولسان العرب لابن منظور ، والقاموس المحيط للفيروزبادي . ومنها المجموعات الشعريّة ، وهي أهم مصادر البحث وأغناها ، وأخص بالذكر الأصمعيّات للأصمعي ، والأشباه والنظائر للخالديّين ، وحماسة أبي تمّام بشرح الخطيب التبريزي وشرح المرزوقي . ومنها الكتب الأدبيّة ؛ مثل البيان والتبيين والحيوان للجاحظ ، وعيون الأخبار لابن قتيبة ، والعقد لابن عبد ربّه ، وسمط اللآلي للبكري ، وشرح شواهد المغني للسيوطي ، وخزانة الأدب للبغدادي .

ومنها كتب التاريخ ؛ وأهمّها تاريخ الطبري ، وتاريخ ابن الأثير . ومنها كتب الطبقات والتراجم ؛ مثل طبقات فحول الشعراء لابن سلاّم الجمحي ، والشعر والشعراء لابن قتيبة ، ومعجم الشعراء للمرزباني ، والإصابة في تمييز الصحابة وتهذيب التهذيب لابن حجر العسقلاني .

ومن مصادر البحث كتب الأنساب ؛ مثل جمهرة النسب لابن الكلبي ، وجمهرة أنساب العرب لابن حزم الأندلسي .

ورجعت إلى الدراسات الأدبيّة الحديثة ، وأخصّ بالذكر كتاب المنصفات لعبد المعين الملّوحي ؛ وتعدّ هذه الدراسة قيّمة ، وذلك لأنّ مؤلّفها هو أول من تصدّى لجمع المنصفات، وصنّفها حسب لون الانصاف فيها ، كما جمع عدداً من المقطوعات غير قليل . إلاّ أنّه لم يتناول المنصفات باعتبارها ظاهرة أدبيّة لها أبعادها المختلفة ، فلم يتابع تطوّرها بعد الجاهلية من حيث العوامل التي أثّرت فيها ، مع أنّ هناك بونا شاسعا يفصل بين العصرين الجاهلي والأموي ، وإنّما تناول كل منصفة على حدة ، فعرّف بشعرائها ، وذكر مناسباتها التاريخية ، وشرحها وحلّلها ، وبيّن مواضع الانصاف فيها .

ومن الدراسات الحديثة التي رجعت إليها الشعر وأيام العرب في العصر الجاهلي للدكتور عفيف عبد الرحمن ، وشعر الحرب في أدب العرب للدكتور زكي المحاسني ، والرواية الأدبيّة في بلاد الشام في العصر الأموي والشعر في خراسان من الفتح إلى نهاية العصر الأموي للدكتور

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

حسين عطوان ، وشعر الحرب حتى القرن الأول الهجري للدكتور نورى حمّودي القيسي ، وتاريخ التراث العربي للدكتور فؤاد سوزكـــــــين .

ورجعت إلى " شاعرات العرب في الجاهليّة والإسلام " لبشير يموت ، الذي يُعدُّ مصدراً للموثّبات في الشعر العربـــــــي .

* * *

أمّا الأستاذ الدكتور **حسين عطوان** الذى تفضّل بالإشراف على هذا البحث ، فـــإنّ الكلمات تقف عاجزةً عن إنصافه ، فلطالما انتفعت بعلمه ، وأفدْتُ مِنْ نُصْحه وتوجيهه ، ومهّـدت طريقي الشاق غزارة علمه وسداد رأيه ، وهو الذي أمضى الوقت الطويل يعلّم وينصح ، حـــتى خرج هذا البحث على هذه الصـــــــورة .

وأما الأستاذان الفاضلان ؛ الأستاذ الدكتور **عبد الكريم خليفة** ، والأستاذ الدكتـــور **نصرت عبد الرحمن** أعضاء لجنة المناقشة فلهما الشكر صادقا كفاء ما أنفقا من وقت في قراءة هذا البحث ، وما أبدياه من ملاحظات قيّمة تكمّل ما فيه من نقص ، وتقوّم ما فيه من عـــــوج .

ولا يفوتني أن أتقدّم بالشكر الجزيل والثناء العظيم للأستاذين الكريمين ؛ الأستـــاذ الدكتور **ناصر الدين الأسـد** ، والأستاذ الدكتور **هاشم ياغي** اللذين أقامـــا أود الدراســة بملاحظاتهما القيّمة وإرشاداتهما النيّـــــــرة .

وبعـــد ،

فأرجو أن يكون هذا البحث مساهمة متواضعة في خدمة الأدب العربي ، وإنّني لا أدّعي فيـــه الكمال ، فالكمال لله وحده ، ولكن حسبي منه أني أخلصت النيّة وبذلت غاية الجهد ، والله من وراء القصد ، وهو وليّ التوفيق ، هو ربّي عليه توكّلت واليه أنيـــــب .

٢/ ٨/ ١٩٩٢م

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الفصـــــل الأول

"تاريـخ القصائـد المنصفـات وتطورهـــــا"

* المعنـى اللغـوى للإنصـــاف .
* المفهـوم الأدبي للمنصفـــات .
* نشــــأة المنصفـــــــات .
* تطـــور المنصفـــــــات .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

المعنى اللغوي للإنصاف :

لا بدّ قبل الدخول في موضوع البحث ، أن نمهّد بتحديد مفهوم الإنصاف عند علماء اللغة . وقد جاءت كلمة الإنصاف في المعاجم اللغوية على وجوه أربعة ؛ وهي الإنصاف ، والنِّصْف ، والنَّصَف ، والنَّصَفة ، وهي تحمل مدلولاً واحداً . ذكر ابن منظور والجوهري والزمخشري أن النَّصَف والنَّصَفة والإنصاف إعطاء الحق . وقد انتصف منه ، وأنصف الرجل صاحبه إنصافاً ، وقد أعطاه النَّصَفة ابن الأعرابي ، أنصف إذا أخذ الحق وأعطى الحق . والنَّصَفة اسم الإنصاف ، وتفسيره أن تعطيه من الحق كالذي تستحق لنفسك .

ويقال انْتَصَفْتُ من فلان أخذتُ حقّي كملا منه ، حتى صرت أنا وهو على النَّصَف سواء . وتنصّفت السلطان أي سألته أن ينصفني ، والنِّصْفُ الإنصاف . قال الفرزدق :

ولكنّ نصفا لو سَبَبْتُ وسبّني ... بنو عَبْدِ شمس من مناف وهاشم

وأنصف الرجل أي عدل ، ويقال أنْصَفَه من نفسه ، وانْتَصَفْتُ أنا منه ، وتناصفوا أي أنصف بعضهم بعضا من نفسه ، ومنه قول الشاعر :

إنّي غَرِضْتُ إلى تناصُفِ وجهها ... غرضَ المُحبِّ إلى الحبيب الغائب

والنِّصْفُ بالكسر الانتصاف ، وقد أنصفه من خصمه يَنْصِفُهُ إنصافا (١) .

واستشهد الميداني على بيان معنى الإنصاف بقوله : "قالت العرب : قد أنصفَ القارة مَنْ راماها (٢) . وفي بعض الآثار : ألا أخبركم بأعدل الناس ؟ قيل بلى ، قال : من أنصف

---

(١) انظر : لسان العرب والصحاح وأساس البلاغة ـ نصف .

(٢) والقارة قبيلة ، وهم عضل والديش ابنا الهُون بن خُزَيْمَة ، وإنّما سُمّوا قارة لاجتماعهم والتفافهم ، وهم رماة الحدق في الجاهلية ، وهم اليوم في اليمن ، ويزعمون أن رجلين التقيا أحدهما قاري ، فقال القاريّ : إنْ شئت صارعتك ، وإنْ شئت سابقتك ، وإنْ شئت راميتك ، فقال الآخر : قد اخترت المراماة ، فقال القاريّ : قد أنصفتني وأنشأ يقول :

قد أنصف القارة من راماها ... إنّا إذا ما فئة نلقاها

* نردّ أولاها على أخراها *

ثمّ انتزع له بسهم فشكّ به فؤاده (مجمع الأمثال ، الميداني ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، دار الجيل ، بيروت ، الطبعة الثانية ، ١٩٨٧ ، ٢ / ٤٨٩ ، ٤٩٠) .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

مِنْ نفسه ، وفي بعضها أيضا : أشدّ الأعمال ثلاثة : إنصافُ الناس من نفسك ، والمواساة بالمال، وذكر الله تعالى على كل حال "(١) .

قال عمر بن الخطّاب رضي الله عنه لطليحة الأسدي(٢) : "قَتَلْتَ عكاشة بن محصن! لا يحبّك قلبي ! قال : فمعاشرةٌ جميلة يا أمير المؤمنين ، فإنّ الناس يتعاشرون على البغضاء".

وهذا معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه ، يعبّر عن موقفه من الظلم وكراهيّته له وتحرّيه الحقّ والعدل ، فيقول(٣) : "انّي لأستحي أنْ أظلم من لا يجد عليّ ناصرا إلاّ الله".

وروي أنّه "دخل رجل من قيس عيلان على عبد الملك بن مروان ، فقال له عبد الملك: "زُبَيْرِيّ ، عُمَيْرِيّ "(٤) ، والله لا يحبّك قلبي أبدا . فقال الرجل : يا أمير المؤمنين! إنّما يبكي على الحبّ المرأة ، ولكنْ عدلٌ وإنصاف "(٥) .

وهذا الحجّاج بن يوسف الثقفي ، يقف منصفا بين يدي الله ، في مظلمة رفعت له. قال ابن عبد ربّه(٦) : "ورد على الحجّاج بن يوسف سليك بن سلكة (٧) ، فقال : أصلح الله الأمير ، أعِزّني سمعك ، واغضض عنّي بصرك ، واكفف عني غَرْبك ، فإنْ سمعت خطأً أو زَللاً فدونك والعقوبة . قال : قل . فقال : عصى عاص من عرض العشيرة فحُلّق على اسمي (٨) ، وهدم منزلي، وحُرِمْتُ عطائي . قال : هيهات! أو ما سمعت قول الشاعر :

---

(١) انظر: المصدر السابق ، ٢/ ٤٨٩ ، ٤٩٠ .

(٢) انظر: عيون الأخبار ، تأليف ابن قتيبة الدينوري ، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر، نسخة مصوّرة عن طبعة دار الكتب ، القاهرة، ١٩٦٣ ، ٣/ ٩٠

(٣) انظر: العقد الفريد ، ابن عبد ربه ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة ، الطبعة الثانية ، ١٩٤٨ ، ١/ ٣١ .

(٤) زبيري: نسبة إلى الزبير بن العوّام، عميري: نسبة إلى عمير بن الحباب السّلمي .

(٥) انظر: البيان والتبيين ، تأليف أبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ ، تحقيق وشرح عبد السلام هارون ، مكتبة الخانجي بالقاهرة ومكتبة الهلال ببيروت والمكتب العربي بالكويت ، الطبعة الثالثة ، ١٩٦٨ ، ١/ ٣٦٧ ، ٢/ ٨٩ .

(٦) انظر: العقد الفريد ، ١/ ٣٠ ، ٣١ .

(٧) هذا غير سليك بن السلكة الشاعر الذي قتل في الجاهلية ، والذي عاصر الحجّاج هو فرعون بن عبد الرحمن المعروف بابن سلكة . (المصدر نفسه ، ١/ ٣٠ ، حا ٤) .

(٨) حُلّق على اسمي : أي جعل داخل حلقة من المداد ، وكان يفعل ذلك بكل اسم يراد حبس العطاء عن صاحبه ، وهو بمنزلة الضرب على المكتوب في أيامنا . (المصدر نفسه ، ١/ ٣٠/ حا ٦) .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

جانيك من يجني عليك وقـــد ... تُعْدِي الصِّحاحَ مَبارِكُ الجُـــرْبِ
ولَرُبَّ مأخوذٍ بذَنْبِ عشيـــرةٍ ... ونجا المقارفُ صاحبُ الذّنـــبِ

فقال : أصلح الله الأمير ، إنّي سمعت الله عزّ وجلّ يقول غير هذا . قال : وما ذاك؟ قال : قال الله تعالى : (يا أيّها العزيز إنّ له أبا شيخا كبيراً فخُذْ أحدنا مكانه إنّا نـــراك من المحسنين . قال معاذ الله أن نأخذ إلا مَنْ وجدنا متاعنا عنده إنّا اذا لظالمـــون) .

قال الحجّاج : عليّ بيزيد بن [أبي] مسلم . فمثل بين يديه . فقال : أفكك لهـــذا عن اسمه ، واصكك له بعطائه ، وابْنِ له منزله ، ومُرْ مناديا ينادي : صدق الله وكذب الشاعـر".

وكثيرةٌ هي الروايات التي تُبيّن أهميّة الإنصاف ، ذلك أنّ الإنصاف يحول دون الظلـم ، ويمنع الأذى ، ويعطي كل ذى حَقٍّ حقـــــــه .

ويحسن بنا ــ قبل أن ننتقل إلى المنصفات وتحديد مفهومها الأدبي ــ أن نذكـــر آراء الشعراء في الإنصاف ، فمن الشعراء مَنْ دعا اليه وعدّه مفخرة من المفاخر التي ينبغي للمرء أن يفخر بها . ونجد في المقابل من الشعراء ، من يحمل على الإنصاف ويعدّه ذلّة وخزيـــاً ، ويدعو إلى الظلم والبغي والعدوان ، ويرى في ذلك عزّةً ومنعةً وحَزْماً . فنرى طرفة بن العبـــد يشكو من أصحابه الذين يقابلون إحسانه اليهم بالإساءة ، فيقـــول (1) : ــ

فكم صاحبٍ قد كان لي غير مُنْصِفٍ ... إذا جاءه فضلي أتاني جفـــاؤه

وهذا زهير بن أبي سلمى ينكر الإنصاف ، ويعلّل هذا بأنه لا يوجد من يدانيـــه فينصفه ، فيقـــول (2) : ــ

لو كان لي قِرْناً أناضلُـــهُ ... ما طاش عند حفيظةٍ سهمـــي
أو كان يعطي النّصْفَ قلت لـــه ... أحْرَزْتَ قِسْمَكَ فآلهُ عن قسمـــي
يا دهرُ قد أكْثَـرْتَ فَجْعَتَنـــا ... بسراتنا وقَرَعْتَ في العظـــم
وسلبتنا ما لست مُعْقِبَـــهُ ... يا دهرُ ما أنْصَفْتَ في الحُكْـــمِ

---

(1) ديوان طرفة بن العبد ، شرح الأعلم الشنتمري ، تحقيق درّية الخطيب ولطفي الصّقـال ، مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق ، 1975 ، ص: 139 .

(2) شرح ديوان زهير بن أبي سلمى ، صنعة الإمام أبي العبّاس ثعلب ، الدار القوميـــة للطباعـة والنشر ، القاهرة ، 1964 ، نسخة مصوّرة عن طبعة دار الكتب سنـة 1944 ، ص: 385 .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وزهير يبدو ساخراً من الإنصاف ، وهذا ليس بغريب على زهير ، وهو الداعي إلى ردّ الظلم بالقوّة ، فيقول[١] : —

ومن لا يذد عن حوضه بسلاحه يُهدَّمْ ومن لا يَظْلم الناس يُظْلَمِ

وهو في هذا البيت بريء مما اتّهم به من الدعوة إلى الظلم ، وهو يلجأ إلى المشاكلة ، ويقصد من دعوته إلى الظلم ، الدعوة إلى القدرة على ردّ الظلم بالقوة الرّادعة ، وذلك أمر نعرفه في زهير وفي حكمته التي هي خلاصة تجربته[٢] .

ونجد عنترة العبسيّ ذا مواقف من الإنصاف ، فهو في قصيدة يرفض الإنصاف ، لأن خصومه بغوا وظلموا ، فيقول[٣] : —

أبَيْنا فلا نعطي السّواء عدوّنا قِياماً بأعضادِ السّراءِ المُعطَّفِ

فالسواء : النّصفة ، أي لا ينتصف عدوّنا منا .

وفي قصيدة أخرى نجده يفخر بأنه من المنصفين إذا ما دعي إلى الحرب ، فيقول[٤] :

ونحن العادلون إذا حكمنا ونحن المشفقون على الرعيّة
ونحن المنصفون إذا دُعِينا إلى طعن الرماح السمهريّة

وفي ثالثة نجده يشكو من خصمه الذي لا يعرف طريقاً للعدل والإنصاف ، فهو ينصف خصمه وخصمه يظلمه ، يقول[٥] :

ما زلت أنصف خَصْمي وهو يظلمني حتى غدا من حسامي غير منتصف

ونجد العبّاس بن عبد المطلب ، يحضّ أبا طالب على الظلم ومنع النّصفة وترك قبولها ، حتى حين ينصف من أعدائه[٦] :

---

(١) شرح ديوان زهير بن أبي سلمى ، ص ٣٠ .
(٢) انظر: المنصفات ، جمع وتحقيق عبد المعين الملّوحي ، وزارة الثقافة والسياحة والإرشاد القومي ، دمشق ، ١٩٦٧ ، ص: — ظ — .
(٣) ديوان عنترة ، دار بيروت للطباعة والنشر ، دار صادر للطباعة والنشر ، بيروت ، ١٩٥٨ ، ص: ٥٢ .
(٤) المصدر السابق ، ص: ٢٤٠ .
(٥) المصدر نفسه ، ص: ١٧٢ .
(٦) الحماسة للبحتري ، الأب لويس شيخو اليسوعي ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، الطبعة الثانية ، ١٩٦٧ ، ص: ٤٧ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أبا طالبٍ لا تقبل النِّصْفَ منهـــمُ   وإن أنصفوا حتى تَعُقَّ وتَظْلِمـــا
أبى قومنا أنْ ينصفونا فأنْصَفَـــتْ   قواطعُ في أيماننا تقطرُ الدَّمـــا
تركناهمُ لا يستحلّون بعدهـــا   لذي حُرْمةٍ يوما من الدهر مَحْرَمـــا

وهذا الصلتان العبديّ أشدّهم دعوةً إلى الظلم وردّ النّصف، إذْ يقـــول[1] :

اغْشَ الأمورَ بحزمهـــا   حـتى تكـون الأحزمـــا
واظلـمْ فلست بمـــدركِ الـ   أوتـار حـتى تظلمـــا

أما الفرزدق فنراه يخالف من سبقوه من الشعراء، ويفخر بأنّه ينصف حتى من ليس أهلا لذلـك، فيقـــول[2] :

إنّا لننصف منّا بعد مقـــدرةٍ   على هضيمته من ليس يَنْتَصِـــفُ
ولا عِزَّ إلا عزّنـا قاهـــر لـــه   ويسألنا النّصْفَ الذليلُ فَيُنْصَـــفُ

ومثله النابغة الشيباني، فإنّه ينبّه لقيمة الإنصاف، إذْ به يتمّ العدل ولا يحتـــاج إلى القضاء، ونراه لا يلتمس العذر لكلّ مَنْ لا يُنْصِف، يقـــول[3] :

ومَنْ ينصفِ الأقوامَ ما فات قاضيـــا   وكلّ امرئ لا ينصف الله جائـــر
* وما لامرئٍ لا ينصف الناس عـــاذرُ

ويعدّ عبد الله بن ذكوان من يرضى بالنّصف لهو دون خسيس ومنْ قوم أرذال، حاضّاً قومه على عدم أخذ النّصف من خصومهم، يقـــول[4] :

فلا تَرْضَوْا بأخْذ النِّصْفِ منهـــمْ   فإنَّ النِّصْفَ حَـظُّ الأرذلينـــا

---

(١) المصدر السابـــق، ص : ٤٧.
(٢) ديوان الفرزدق، دار صادر للطباعة والنشر، بيروت، ١٩٦٦، ٢/ ٢٢، ٣٢.
(٣) ديوان نابغة بني شيبان، مطبعة دار الكتب المصرية، القاهرة، ١٩٣٢، ص ١٨.
(٤) التذكرة السعدية في الأشعار العربية، محمد بن عبد الرحمن بن عبد المجيـــد العبيـــدي، تحقيـــق عبـــد اللـــه الجبـــوري، المكتبـــة الأهليـــة، بغـــداد، ١٩٧٢، ص : ١٢٣.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

المفهـــوم الأدبي للمنصفـــــات :

وضع الطبرسيّ حدّاً للمنصفات ، إذ قال بعد أن شرح أبياتا للعبّاس بن مِرْداس[١] : "وهو من باب التناصُف ، وللعرب قصائد قد أنصف قائلوها فيها أعداءهم ، وصدقوا عنهـــم وعن أنفسهم ، فيما اصْطَلَوْهُ مِنْ حَـرّ اللقاء ، وفيما وصفوه من أحوالهم في إمحاض الاخاء ، قـــد سمّوها المنصفـــات " .

وعرّفها الأستاذ محمود محمد شاكر بقوله[٢] : "المُنْصِفَة : هي القصيدة التي يمـدح فيها الشاعر أعداءه ، ويذكر ما أوقعوا بقومه وما أوقع قومه بهم إنصافاً وعدلا ، ولكنّني أظـــن أنّها ليست قصائد مدحيّة للعدوّ بالمعنى الخالص ، وإنما هي قصائد يصف فيها الشاعر أعداءه وقومه فيما اصطلوه من حرّ القتال وصفا أقرب ما يكون إلى الواقـــع .

وهناك من لا يسمّونها المنصفات كما عرفت ، وإنما يُسمّونها "المُنَصَّفات" كـــأنّ القصيدة جعلت نصفين بين القائل وعـــدوّه[٣] .

وقد قيلت هذه القصائد في الحرب ، كما قيلت في السلم وهو إمحاض الاخاء ، وهـــو ذلك الجانب الذي يصف فيه الشاعر الإخاء الخالص الصادق بين قومه وخصومهم . ومن التناصف في الإخاء قول الفضل بن العبّاس رضي الله عنهمـــا[٤] :

لا تطمعوا أنْ تُهينونا ونكرمكـــم وأنْ نكفّ الأذى عنكم وتؤذونـــا

ويُلاحَظ أنّ معاوية بن أبي سفيان سبق إلى اختيار قطع من أشهر القصائد المنصفات ، وكأنّه نبّه على قيمتها باختياره لها ، وسؤاله لجلسائه عنها ، وإطلاعه لهم عليها ، فانتخبهـــا رواة الشعر بعد ذلك ، ولكنّهم لم يزيدوا عليها قصائد أخرى ، لأنّهم لم يجدوا أجود منها[٥] .

---

(١) انظر: خزانة الأدب ولبّ لباب لسان العرب على شواهد شرح الكافية . تأليـــف عبد القادر البغدادي ، المطبعة الميرية ببولاق ، الطبعة الأولى ، ٣/ ٥٢٠ .

(٢) انظر: طبقات فحول الشعراء ، ابن سلام الجمحي ، شرحه محمود محمد شاكر ، دار المعارف للطباعة والنشر ، القاهرة ، ١٩٥٢ ، ص: ٢١ ، حا ٣ .

(٣) انظر: الأشباه والنظائر من أشعار المتقدمين والجاهلية والمخضرمين للخالديّيـــن ، حققه وعلق عليه الدكتور السيد محمد يوسف ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشـــر ، القاهرة ، ١٩٥٨ ، ١/ ١٤٩ ، حا ٣ .

(٤) انظر: خزانة الأدب ، ٣/ ٥٢١ .

(٥) انظر: الرواية الأدبية في بلاد الشام في العصر الأموي ، الدكتور حسين عطوان ، دار الجيل ، بيروت ، الطبعة الأولـــى ، ١٩٨٨ ، ص: ١٥٣ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ونبّه الجاحظ على أهمّية القصائد المنصفات بقوله(١) : "أدركت رواة المَسْجديّين والمِرْبَديّين ومَنْ لم يَرْوِ . الأشعار المنصفة ، فإنّهم كانوا لا يعدّونه من الرواة".

في حديث الشعراء عن حال الأعداء ، نجد الغالبيّة العظمى منهم قد أفسحوا المجال لخيالهم، وأطلقوا العنان لتصوّراتهم ، فبالغوا في وصف سوء حال العدو ، خصوصا بعد انتهاء القتال ، فصوّروهم بما يُفهَم منه أنّهم قد هلكوا عن آخرهم ، أو كُسِرَتْ شوكتهم بحيث لن تقوم لهم قائمة بعد ذلك . وهم في مغالاتهم في وصف حال أعدائهم ، مجانبون للصواب ، بعيدون عن النزاهة ، نجد ذلك كثيرا عند أولئك الشعراء الذين ذهبوا مذهب الفخر والهجاء في أشعارهم .

ولكنّنا بجانب هذا الاتجاه ، نجد جماعة من الشعراء لم يندفعوا في تيّار المبالغة والمغالاة في تصوير حال الأعداء ، بل كانوا معتدلين منصفين ؛ فوصفوا في قصائدهم ما حدث للفريقين ، دون تحيّز أو تعصّب لأحدهما ، وقد اشتهرت هذه القصائد ، وكان لها تقدير خاص عند الرواة ، حتى سمّيت "المنصفات" ، وأظهر شيء فيها أنّ الشاعر كان يحكي فيها ما حدث لقومه ، في مقابل ما حدث للأعداء ، ويتحدّث عن الجانبين ، بما يصف الحقيقة والواقع وقد يمدح فيها العدوّ بالقوة والشجاعة ، دون أن يذمّ قومه أو يبخسهم حقّهم(٢) .

وكثير من فرسان العرب في الجاهلية ، وفي صدر الاسلام وعهد بني أمية ، كانوا شعراء يسجّلون أنباء قبائلهم ، ويفتخرون بانتصاراتها ، ويعتذرون عن انهزامها ، ويقف الفارس الشاعر من انتصار قومه أحد موقفين : إما أن يفخر بنفسه وبقبيلته ، ويهزأ بالمغلوب ويزدريه ، ويكون بهذا فارسا مرة واحدة ، وإمّا أن يعترف بشجاعة المهزوم ، فيغض من كبرياء الغالب وغروره ، وينصف عدوّه ، ويذكر شجاعته وجرأته ، فيكون فارسا مرّتين ؛ فارسا لأنّه انتصر ، وفارسا لأنّه أنصف عدوّه ، وهذه أقوى صور الإنصاف وأصدقها ؛ لأنه لم ينس عدوّه وسط نشوة نصره ، فأنصفه اعترافا منه بقوته وشجاعته ، وهو جانب ضئيل جداً في الشعر العربي .

---

(١) انظر: البيان والتبيين ، ٤/ ٢٣ .

(٢) انظر: شعر الحرب في العصر الجاهلي ، د . علي الجندي ، مكتبة الجامعة العربية ، بيروت ، الطبعة الثالثة ، ١٩٦٦ ، ص: ١٩٩ ، ٢٠٠ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أما إذا هزم قومه فنراه يقف منصفاً لأعدائه ، معترفاً بشجاعتهم ، ومسوّغاً لهزيمة قومه ، وهو ينصفهم من ضعف على استحياء لا من قوّة كموقف المنتصر .

وقد تكون نتيجة اللقاء أن يتكافأ الفريقان ، فنراه يُنْصِفُ قومه من خصومهم ، وينصف خصومه من قومه ، وقد غلب هذا الجانب على المنصفات ، ودخل في شرط حدّ الطبرسي لها[1].

ويشكّل شعر الإنصاف الجانب الخلقي في شعر الحماسة والفروسية ، ويظهر أنّه "لم يكن جانب الحرب في شعر الفرسان هو الجانب الغالب ، ولم تكن أصوات الرماح ، وقعقعة السيوف ، هي الأصداء المتجاوبة في قصائدهم ، وإنما كان الجانب الخلقي في حياتهم لا يقلّ عن ذلك الجانب وضوحاً وتميّزاً ، لأنّ البطولة الحربية كانت تقترن بالبطولة الخلقية عند هؤلاء الفرسان في كثير من الأحيان ، فالكرم والإيثار والنجدة والوفاء بالعهد ، والحفاظ عليه ، والحلم ورحابة الصدر وحماية الجار والدفاع عن المرأة والذود عن المستجير ، كلّ هذه المعاني كانت تتألّق في قصائدهم ، إلى جانب الجرأة والاقدام ، والصبر على النائبات ، والثبات في المعركة ، وخوض غمار الحرب والشجاعة فيها .

٤١٦٢٧٨

فعنترة فارس في حروبه لأنه يبلي فيها بلاءً محموداً ، وهو لا يخوض الحرب من أجل الغنيمة والأسلاب ، وهو فارس في خلقه لأنه عفيف في سلوكه ، لا ينظر إلى جارته إذا غاب بعلها . وربيعة بن مكدّم (حامي الظعينة) بطل في أفعاله ، لأنه دافع عن الظعينة دفاع المستميت ، والدفاع عن الظعينة يعني الدفاع عن المرأة التي كُلِّفَ بحمايتها ... ، ومن هنا كان هذا اللقب من ألقاب الفخر والاعتزاز لدى الفرسان ، وبطل في مروءته ، لأن صفاتها متمثّلة عنده . ومثلها دريد بن الصمة وعامر بن الطفيل وعروة بن الورد وحاتم الطائي وكعب ابن مامة الإيادي ، وغيرهم من فرسان الجاهلية الذين كانوا أبطالاً في حروبهم وأخلاقهم ، وفرسانا في معاركهم ومثلهم العليا وسلوكهم الانسانيّ الذي رفعهم إلى المرتبة السامية في عالم القيم ... وطبيعيٌّ أن يدفعهم هذا الخلق إلى أن يكونوا منصفين حتى لخصومهم ، لأنّ الفطرة العربية السليمة ، تملي على صاحبها ذلك ، مع كل الاعتبارات التي كانت تحيط بالمجتمع العربي آنذاك ، ومع كلّ القيم المتعارف عليها في خضمّ ذلك الوسط القبلي المتزمّت .

---

(١) انظر: المنصفات ، ص: ـ أ ـ ، ـ ب ـ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

فالفارس الجاهلي يعترف بقوة خصمه ، ويشهد له بالثبات في المعركة ، والصبر على مصائبها واحتمال عواقبها ، ويُبدي إعجابه — في بعض الأحيان — فالقتل يقع بين قبيلتين ، والسباع إذا شبعت شبعت من فرسان القبيلتين ، والنساء إذا بَكَيْنَ فَهُنَّ نساء الطرفين ، وهكذا كانت المعارك سجالاً ، يقهر الفارس خصمه ، ويقهره الخصم ، ويهزم عدوّه ، أو يهزمه عدوّه ، وحتى في مواضع الهجاء ، الذي يمثل ظاهرة السخط والسخرية ، فإن هجاء الفرسان يأخذ طابع الإنصاف في بعض الأحيان ، فتبدو القصائد معتدلةً ، لا مبالغة فيها ، يذكر فيها الشاعر ما وقع له ، وما وقع لخصومه ، وهو لا يذمّ الخصم بما ليس فيه ، ولا يجرّده من صفات الفروسية الحقّة ، لأن في ذلك عيباً على الشاعر ، ومنقصة يأنف منها .

إنّ هذا الإنصاف والاعتراف لم يكونا من باب التفاخر المحض والتعالي ، أو التوصّل إلى إثبات شجاعة الفارس ، وإنما هو تقدير لمفهوم الشجاعة ، وإعجاب بهذه الصفة المحبّبة إلى نفوسهم ، دفعتهم إلى الإيمان بكل سبب يتّصل بها ، فهم يدركون أنّ الموت يكمن لهم في رأس كل ثنيّة ، وعند كل ثغر ، ولكن ذلك لم يقعد بهم عن السير ، ولم يمنعهم من الاستمرار في الطريق الذي رسموه لهم "(١) .

ومع ذلك فإنّ هذا الموضوع محدود في الأدب العربي ، لأنّ ما وصل الينا من شعر الإنصاف قليل ، ومَنْ عَرَفْنا من الشعراء المنصفين غيرُ كثيرين ، ولعلّ مردّ ذلك إلى أنّ الإنصاف في حياة العرب شيء نادر ، خاصةً عندما تضع الحرب أوزارها ، فيفقد الرجل أخاه أو ابن عمه ، وتفقد المرأة زوجها ، وتثكل الأمّ ابنها ، عندها تتفجّر الأحقاد ، وتغزو المطامع النفوس ، فَيُعْشي الشاعرَ جانبُ الحرب واصطلاءُ قومه بحرّها ، عن رؤية شجاعة عدوّه ، فيرى نفسه فقط ، ويغيب الإنصاف بذلك . نعم إنّ في قول الكاتب "عندما تنشب الحرب يكون في كلا الصفين أبطال ، صوابا كبيرا وإنصافا واضحا ، ولكنّ هذا الإنصاف ، يتطلّب شاعراً محايداً يرى الفريقين معا ، أو شاعراً يرقى عن مستوى الصفّ الذي هو فيه ، ليرى مآثر أعدائه ، كما رأى مآثر قومه ، وقلّ أنْ يملك المحارب أعصابه ونفسه وعواطفه في مثل هذه المواقف . ولذلك وجدنا أكثر الشعراء يتجاهلون عن إنصاف أعدائهم ، ويعدلون عنه إلى الظلم والبغي .

وغريب أننا نجد بعض شعراء المنصفات ينصفون في قصائدهم ، فإذا قرأنا قصائد أخرى لهم ، وجدناهم أبعد ما يكونون عن الإنصاف ، بل قد نجد بعضهم في القصيدة المنصفة

(١) انظر: مجلة الأقلام العراقيّة ، "المنصفات في الشعر العربي" ، مقال بقلم الدكتور نوري حمودي القيسي ، السنة الأولى ، الجزء السادس ، ص ١٥٨ ، ١٥٩ ، ١٦٣ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

نفسها ينصف في أبيات ، ثم لا يلبث أنْ يعدل عن الإنصاف في أبيات أخرى إلى موضوعه الأصلي ، فما أقسى ما يبذل الإنسان من طاقته ، ويراقب من عاطفته ليبقى منصفا ! ؟

وتبرز قيمة القصائد المنصفات ليس في عددها ، وإنّما في مضمونها ، في هذا الجهد الإنساني المتميّز ، الذي بذله المقاتل الجريح المفجوع في ميدان الكلام ، ليرى في عدل وصدق ذلك الجهد الذي بذله المقاتل الجريح المفجوع في ميدان المعركة . عندئذ نجلّ هذا البطل المقاتل الذي يجلّ عدوّه البطل المقاتل ، ويرى فيه عدوّاً في الحرب ، وأخاً وابن عمٍّ في السلم ، وكفوءاً في القتال ، وندّا في الفعال (١) .

قال الخالديّان (٢) :

" ذكر الرواة أنّ منصفات أشعار العرب ثلاثة أشعار ، فأوّلها قصيدة عامر بن مَعْشَر بن أسحم ابن عديّ بن شَيْبان بن سُود بن عُذْرَة بن منبّه بن نُكَيْز بن أفْصى بن دُعميّ بن جَديلة بن أسد بن ربيعة بن نزار ، ومطلعها :

ألم تر أن جيرتنا استقلّوا فنيّتنا ونيّتهم فريقُ

والمنصفة الثانية لعبد الشارق بن عبد العُزّى الجُهَنيّ ، ومطلعها :

ألا حيّيتِ عنّا يا رُدَيْنا نُحيّيها وإنْ كَرُمَتْ عَلَيْنا

والمنصفة الثالثة للعبّاس بن مِرْداس السُّلميّ ، ومطلعها :

لأسماءَ رسمٌ أصبحَ اليوم دارِسا وأقفر منها رَحْرَحانَ فراكسا

غير أنّنا وجدنا أنّ المنصفات أكثرُ ممّا ذكره الرواة ، فإذا استقرأنا الشعر العربي المجموع في دواوين الشعراء الجاهليّين والاسلاميّين والأمويّين ، والمتناثر في بطون المختارات ودواوين الحماسة ، ألفَيْنا أنّ كلّ أثر خالد يُطِلّ علينا منها ، يمكن أن نجد فيها إنصافاً على قلّة هذا الجانب وندرته في الشعر العربي .

---

(١) انظر: المنصفات ، ص: ـ ذ ـ ، ـ ض ـ .
(٢) انظر: الاشباه والنظائر ، ص: ١٤٩ ـ ١٥٣ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

نشـــأة المنصفـــــات :

لم يعرف العرب في الجاهلية طعم الاستقرار والاطمئنان ، فكانت حياتهم تستدعـــي بسبب ضيق رقعة الحدود فيما بينهم ، أن يخرجوا بحثاً عن الكلأ إذا أجدبت الأرض ، أو طلبـــاً للثأر إذا قتل أحد فرسانهم ، فحياة العربيّ في الجاهلية كانت سلسلة من المتاعب والحـــروب المتعاقبة على مرّ السنيـــــن .

وقد فرضت عليهم قسوة الحياة التي عاشوها في صحرائهم ، أنْ يحترموا تقاليد تعلّموها من حروبهم وأيامهم ، فكان الفارس العربي في الجاهلية وبعد الاسلام ، يحرص على احترام تقاليد معيّنة ، التزم بها نحو خصمه ، فهو لم يتعوّد طعنه وهو مدبر ، ولم يقتله طالما أنّه رضـــي أن يستأسر له ، وكانوا إذا تنادوا بوقف القتال التزم به الطرفان . ولم يكن هذا الفارس ليرضـــى أن ينازل إلاّ ندّه ، لأن في منازلة من هو دونه إهانةٌ لفروسيّته . فالخصم يجب أن يكون من درجة الفارس ، وهمّ الفارس أن يتسامع العرب في مجالسهم ونواديهم ، أنّه نازل فارساً ندّا فغلبه ، وإذا قُتِل فيهمّه أن يتسامع العرب أنّ الذي قتله فارس له قـــدره .

ومن هنا كان الفارس يجد نفسه أمام خصم قويّ الشكيمة ، ونتيجة اللقاء لا تتجـــاوز أحد احتمالين ، إمّا أن ينتصر عليه أو يُهْزَمْ . فإذا انتصر عليه ، فيهمّه أن يذكر أنّ هذا الخصم كان شجاعاً صلب العود يحسن مقارعة الأبطال ، وأنّ القضاء عليه لم يكن سهلا . وإذا ما هـــزم أمامه ، فيهمّه أن يفهم الناس أنّه لم يُهْزَمْ أمام فارس عادي ، بل هزمه فارس ماضي العزيمـــة . ولذلك كان الفارس الشاعر ، يحرص على إنصاف هذا الخصم في شعره ، ففي الحالين سيخـــدم هذا الشعر غرضـــــــه .

وكان الفارس الشاعر يعزّ عليه أن يرى خصمه الفارس الشجاع مجندلاً ، مع أنّه هو الـــذي قتله ، لأنه فارس يقدّر الفارس الشجاع ، ولكنّها الحرب ، ثم هو لا يغيب عن وعيه ، أنه سيجنـــدل مثله في يوم من الأيام ، فليحرص على إنصافه ، لعلّ خصمه ينصفه عندما يلاقي ذلك المصير (١) .

وليس بين أيدينا ما يقطع بتاريخ معيّن لنشأة المنصفات ، إلاّ أنها ولدت في الجاهلية واستمرّت بعدها ، وأمّا ما يروى (٢) أنّ أول من أنصفَ في شعره هو المهلهل بن ربيعة فـــي

(١) انظر: الشعر وأيام العرب في العصر الجاهلي ، د . عفيف عبد الرحمن ، دار الأندلس بيـــروت ، ١٩٨٤ ، ص: ٣٠٢ ، ٣٠٣ .

(٢) انظر: خزانة الأدب ، ٣/ ٥٢٠ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

حرب البسوس، وذلك قوله :

كأنّا غُدْوَةً وبني أبينا ... بجنب عُنَيْزَةٍ رَحَيا مُديرِ

فهو ليس صحيحا ، فقد سبق المهلهل شعراء آخرون تقدّموه في الإنصاف والزمن (١) .

ولم يكن الإنصاف في الشعر العربي ، حين نجد نماذجه المختلفة ، نَزْوَةً عابرة ، أو عاطفة نبيلة موقوتة ، وإنما كان الإنصاف في الغالب ، نتيجة من نتائج الحروب الطويلة العنيفة ، التي خاضها العرب في صحرائهم ، على أعدائهم حيناً ، وعلى أصدقائهم حيناً ، وعلى بني عمومتهم حيناً ، بل على إخوانهم أحياناً ، إذا قست عليهم الطبيعة ، وأجحفت بهم السنون ، فأعرقت العظم واللحم .

وقد علّمتهم هذه الحروب أشياء كثيرة ، علّمتهم أنها تقتضي أوّل ما تقتضي رجولة كاملة : في حب الموت ، والإقدام على الهول ، والصبر عند المكاره ، وتقتضي ثاني ما تقتضي استعدادا كاملا في آلات الحرب : الدروع السابغة ، والرماح النافذة ، والسيوف القاطعة ، والخيول الصابرة (٢) . وهذا عمرو بن معد يكرب الزبيدي ، يُعَدِّد عُدَّة حربه ولبوس أعدائه في المعارك (٣) :

أعْدَدْتُ للحَدَثانِ سا ... بغَةً وعَدَّاءً عَلَنْدَى
نَهْداً وذا شُطَبٍ يَقُـ ... ـدُّ البَيْضَ والأبدانَ قَدّا
وعَلِمْتُ أنّي يومَ ذا ... كَ مُنازِلٌ كَعْباً ونَهْدا
قومٌ إذا لَبِسوا الحديـ ... ـدَ تنمّروا حَلَقاً وقِدّا
كلُّ امرئٍ يجري إلى ... يوم الهِياج بما استعدّا

والعرب وقد استعدّوا للقتال ، وأخذوا أهبتهم من قوّة ومن رباط الخيل ، يعلمون بعد ذلك ، أنّ الحرب ليست لهوا ولا لعبا ، وإنّما هي جدّ وهول ، وهذه الخنساء ، ذاقت مرارة الحروب (٤) ، وعرفت أنّ الحرب تُفْني الرجال ، وتترك النساء ثكالى والأطفال يتامى ، وتوجع

---

(١) انظر: المنصفات ، ص: س .
(٢) انظر: المرجع نفسه ، ص: ط .
(٣) انظر: شرح ديوان الحماسة لأبي تمام ، الخطيب التبريزي ، تحقيق وتعليق محمد محيي الدين عبد الحميد ، المكتبة التجارية الكبرى ، القاهرة ، ١٩٣٨ ، ١٧١/١ — ١٧٢ .
(٤) انظر: المنصفات ، ص: ى .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الأفئدة ، فإذا هي تقول [١] : —

تعرّقني الدهرُ نَهْساً وحَزّا ... وأوجعني الدهرُ قرعاً وغمزاً
أصاب رجالي فأفناهمُ ... فأصبح قلبي بهم مُسْتَفَزّا
وكانوا السنامَ على قومهم ... وزَيْنَ العشيرةِ بذلاً وعِزّا

ثمّ تقرّر أنّ "من دخل الحروب ، وقارع الأبطال ، وظنّ أنّه لَنْ يُصاب بشيء من الضرب والطعن ونحو ذلك ، فقد ظنّ ظنّاً باطلا" [٢] :

ومن ظنّ ممّن يلاقي الحروب ... بأنْ لا يصاب فقد ظنّ عجزا

وقد استطاع شعراء الحرب في العصر الجاهلي أنْ يعطوا كلّ جوانب الحرب حقّها ، وأن يواكبوا دقائقها بإمعان ، ويراقبوا وقائعها بتأمّل ، وكانوا يحرصون على أنْ يعطوها حجمها الذي تستحقّه في الموازنة ، لأنّ كلّ الصور الشعريّة التي كانوا يقدّمونها ، كانت تستمدّ أشكالها من البيئة العربيّة الحيّة المتّصلة بهم ، والظروف الطبيعيّة التي شقّوا دروبها ، وإذا قورن بين حقيقة الحرب والصور التي شبّهت بها في كل مرحلة ، توضّحت قدراتهم الشعريّة على هذه الاستعارات ، وحكمتهم في صياغتها ، ومعرفتهم بما يمكن أن تؤدّيها كلّ منها في مجال المواجهة [٣] . ففي أبيات عمرو بن كلثوم ، تظهر صورة الحرب على أنها تُهلك الناس ، وتبيد البشر ، وتفتّت الجمع ، وتسحقهم فتجعلهم طحينا متبدّدا ، لا يجمع شمله ولا توحّد أجزاؤه [٤] :

متى ننقلْ إلى قومٍ رحانا ... يكونوا في اللقاء لها طحينا
يكون ثِفَالُها شرقيّ نَجْدٍ ... ولَهْوَتُها قُضَاعةُ أجمعينا

وهذا زهير بن أبي سلمى يعظّم شأن الحرب ، ويحذّر قومه من سوء عاقبة إيقاد نيرانها ، فمتى أثيرت الحرب التهبت نيرانها ، فتفنيهم كما يطحن الرحى الحبّ ، وتولد أبناء مشائيم على آبائهم ، وتُربّي العضار المتولّدة من هذه الحرب عن المنافع المتولّدة من الدراهم التي تغلّها قرى العراق ، يقول [٥] :

(١) الحماسة الشجرية ، تحقيق عبد المعين الملوحي وأسماء الحمصي ، وزارة الثقافة والسياحة والإرشاد القومي ، دمشق ، ١٩٧٠ ، ١/ ٣٢٣ ، ٣٢٤ .
(٢) انظر: شرح درّة الغوّاص في أوهام الخواص للخفاجي ، طبع برخصة نظارة المعارف الجليلة في مطبعة الجوائب القسطنطينية ، الطبعة الأولى ، ١٢٩٩ ، ص: ٢٥٦ .
(٣) انظر: شعر الحرب حتى القرن الأول الهجري ، د. نوري حمّودي القيسي ، عالم الكتب ، بيروت ، ١٩٨٦ ، ص: ٨٤ .
(٤) شرح المعلقات السبع ، الزوزني ، مكتبة المعارف ، بيروت ، الطبعة الخامسة ، ص ١٧١ .
(٥) شرح ديوان زهير بن أبي سُلمى ، ص: ١٨ — ٢١ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وما الحربُ إلاّ ما عَلِمْتُمْ وذُقْتُمُ ... وما هو عنها بالحديث المُرَجَّمِ
متى تبعثوها تبعثوها ذميمةً ... وتَضْرَ إذا ضَرَّيْتموها فتضرَمِ
فَتَعْرُككُمْ عَرْكَ الرحى بثِفالها ... وتَلْقَحْ كِشافاً ثم تُنْتَجْ فَتُتْئِمِ
فَتُنْتِجْ لكم غِلمانَ أشأمِ كلِّهم ... كأحمرِ عادٍ ثم تُرْضِعْ فتفطمِ
فَتُغْلِلْ لكم ما لا تُغِلُّ لأهلها ... قرىً بالعراق من قَفِيزٍ ودِرْهَمِ

ومن البداهة ــ وقد عرف العرب ما في الحروب من مآس ــ أن يعرفوا أنّ هذه المآسي والشرور ، لا تنال جانبا دون جانب ، ولا تلحق فئة دون فئة ، بل إنّ القروح تتساوى ، ولئن أصاب هؤلاء قرح ، فقد أصاب أولئك قرح مثله (١) .

وهذا تأبط شرّا ، يُقرّ بأنّ مَنْ أُولِعَ بمنابذة الأعداء ، لا بدّ أنْ يلقى بهم ــ يوما من الأيام ــ مصرعاً من مصارع الموت ، لأنه كما يرى فيهم يرى بهم ، يقول (٢) :

ومن يُغْرَ بالأبطال لا بُدَّ أنه ... سيلقى بهم من مصرع الموت مصرعا

ويقرّ قطري بن الفجاءة بأنّ الذي يدخل الحرب ، لا بدّ أن يُسقى من الموت كما يسقيه لخصمه ، ولا يرى في ذلك عارا ، يقول (٣) :

ألا أيّها الباغي البراز تقرّبَنْ ... أساقك بالموت الذُّعاف المُقَشّبا
فما في تساقي الموت في الحرب سُبّةٌ ... على شاربَيْهِ فاسقني منه واشربا

لقد حاول هؤلاء الشعراء الفرسان ترسيخ مفاهيم البطولة في مقارعة الخصم ، وتجاوز مواقف الضعف والتخاذل إلى المواقف الحاسمة ، مهما كلّفهم ذلك من تضحيات ، لأنهم كانوا يعلمون أنّ الحفاظ على الوجود ، والدفاع من أجل تثبيت المفاهيم ، تُحتّم عليهم أن يتّخذوا هذه المواقف (٤) .

---

(١) انظر: المنصفات ، ص: ــ ن ــ .
(٢) ديوان تأبّط شرّا وأخباره ، جمع وتحقيق وشرح علي ذو الفقار شاكر ، دار الغرب الاسلامي ، بيروت ، الطبعة الأولى ، ١٩٨٤ ، ص: ١١٩ .
(٣) شرح ديوان الحماسة لابي تمام ، المرزوقي ، تحقيق أحمد أمين وعبد السلام هارون ، لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة ، ١٩٥٣ ، ص: ٦٨٢ . وديوان شعر الخوارج ، جمع وتحقيق الدكتور احسان عباس ، دار الشروق ، بيروت ، الطبعة الرابعة ، طبعة مزيدة ومنقحة ، ١٩٨٢ ، ص : ١٢٧ .
(٤) انظر: شعر الحرب حتى القرن الأول الهجري ، ص: ٨٧ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ووصف شعراء الحرب والفتوحات الاسلامية خصومهم بالشجاعة والسطوة والبأس، ومنهم من كان يصل في إكبار بطولة أعدائه ، والإعجاب بشجاعتهم ، والشهادة ببسالتهم وقدرتهم في القتال ، إلى حدّ يعتذر فيه عن هزيمة قومه ، ويسوّغ هروبه منهم (١) . وهذا عنترة يصف خصمه الذى قتله ، فلا يبْخسه حقه ، ولا يقلّل من شأنه ، وإنما يصفه بالشجاعة والنجدة والبأس، ومع ذلك فقد قتله عنترة ، والقتل معروف للأبطال (٢) :

ومدجّجٍ كرِهَ الكُماةُ نِزالَهُ ... لا مُمْعِنٍ هرباً ولا مُسْتَسْلِمِ
جادَتْ له كفّي بعاجل طعنة ... بمُثَقَّفٍ صَدْقِ القناةِ مُقَوَّمِ
فشككت بالرمح الأصمّ ثيابَهُ ... ليس الكريمُ على القنا بمُحَرَّمِ

وهذا أوس بن حجر ، يعتذر في أبيات (٣) عن فراره من بني عبس، كما يعتذر عن جبنه الذي لا يعاب به كلّ من عرفت عنه الشجاعة ، ويعترف بقوة خصومه ، فيقول (٤) :

أجاعلةٌ أمُّ الحصين خِزايةً ... عليّ فِراري أنْ لَقِيتُ بني عَبْسِ
ورَهْطَ بني عمرٍو وعمروَ بنَ عامرٍ ... وتَيْماً فجاشت من لقائِهمُ نَفْسي
كأنّ جلود النّمر جِيبَتْ عليهمُ ... إذا جعجعوا بين الإناخةِ والحَبْسِ
لقُونا فضمّوا جانِبَيْنا بصادقٍ ... من الطعن حَشّ النارِ في الحَطَبِ اليَبْسِ
ولما دَخَلْنا تحت فيء رماحهمْ ... خَبَطْتُ بكفّي أطلبُ الأرضَ باللّمسِ
وليس يعابُ المرء من جبن يومه ... وقد عُرِفَتْ عنه الشجاعةُ بالأمسِ

* * *

مطاعينُ في الهيجا مطاعيمُ للقِرَى ... إذا اصفرّ آفاق السماء من القرس

---

(١) انظر : المنصفات ، ص: ـ ع ـ .
(٢) ديوان عنترة ، ص : ٢٦ .
(٣) في نسبة هذه الابيات اختلاف ، فبعضهم يرويها لأوس، وبعضهم يرويها لعمرو بن معد يكرب ، وجاء في "غرر الخصائص" أنها لعبد الله بن عنقاء الجهني (ديوان أوس ابن حجر، تحقيق وشرح الدكتور محمد يوسف نجم، دار صادر، بيروت، الطبعة الثالثة، ١٩٧٩، ص: ٥١، الحاشية) (٤) المصدر نفسه: ص ٥١، ٥٣، والحماسة البصرية للبصري ، تحقيق مختار الدين أحمد ، عالم الكتب ، بيروت ، الطبعة الثالثة ، ١٩٨٣، ١/ ٢٧، ٢٨ ، سوى البيت الثامن ، مع اختلاف في رواية البيتين الثاني والرابع . والعقد الفريد ١/ ١٤٦، ١٤٧ ، سوى الأبيات : الثالث والسادس والثامن ، مع اختلاف في رواية البيتين الأول والثاني .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ويقرّ عامر بن الطفيل بالفرار ، ويعتذر عنه في أبيات من قصيدة قالها بعد يوم فَيْف الريح ، الذي فقأ فيه مسهر بن يزيد الحارثي عينه ، ويذكر فرسه المزنوق الذي كان من أكرم الخيول العربية ، يقول (١) :

لقد علمتْ عُلْيا هَوازنَ أنّني ... أنا الفارسُ الحامي حقيقةَ جعفرِ
وقد عَلِمَ المزنوقُ أنّي أكُرّه ... عشيةَ فيفِ الريحِ كَرَّ المُشَهَّرِ
إذا ازورَّ من وَقْعِ الرماحِ زَجَرْتُهُ ... وقلت له ارجعْ مُقْبِلاً غيرَ مُدْبِرِ
وأنبأتُهُ أنّ الفِرارَ خِزايةٌ ... على المرءِ ما لم يُبْلِ عذراً فَيُعْذَرِ
ألستَ ترى أرماحهمْ فِيَّ شُرَّعاً ... وأنتَ حِصانٌ ماجدُ العِرقِ فاصبرِ
أردتُ لكيما يعلم الله أنني ... صبرتُ وأخشى مثلَ يوم المشقّرِ

وتلك أبيات لأبي خراش الهذلي ، يعتذر فيها عن تقصيره وقومه في التغلّب على أعدائهم ، مبيّناً ذلك أنهم لاقوا جمعا عظيما ، وشمّوا رائحة الموت من لقائهم ، وأنّه لم يجد بعد ذلك كلّه حرجا من الفرار مُكْرَهاً لا بطلا ، يقول (٢) :

لما رأيتُ بني نُفاثةَ أقبلوا ... يُشْلُونَ كُلَّ مُقلَّصٍ خِنّابِ
فنَشِيتُ ريحَ الموتِ من تلقائهمْ ... وكرهتُ كلّ مهنّدٍ قَضّابِ
ورفعتُ ساقاً لا يُخافُ عِثارُها ... وطَرَحْتُ عنّي بالعَراءِ ثيابي
أقبلتُ لا يشتدُّ شَدِّي واحدٌ ... عِلْجٌ أَقَبُّ مُسَيَّرُ الأقرابِ
الله يعلم ما تركت "مُنَبِّها" ... عن طيب نفسٍ فاسألوا أصحابي
لامَتْ ولو شهدت لكان نكيرها ... ماءٌ يَبُلُّ مشافرَ القبقابِ

وللحارث بن هشام المخزومي أبيات ، قالها إثر هزيمة المشركين في بدر أمام المسلمين ، وفراره عن أخيه أبي جهل ، فعيّره بذلك حسان بن ثابت الأنصاري في قصيدة ، يقول فيها مخاطبا نفسه (٣) :

---

(١) ديوان عامر بن الطفيل ، رواية أبي بكر محمد بن القاسم الأنباري عن أبي العبّاس أحمد بن يحيى ثعلب ، دار صادر ، بيروت ، ١٩٧٩ ، ص: ٦١ ، ٦٢ ، والحماسة البصرية ، ١/ ٩٦ ، وهي خمسة أبيات ، والبيت الساقط هو الرابع .

(٢) ديوان الهذليين ، الدار القومية للطباعة والنشر ، القاهرة ، ١٩٦٥ ، نسخة مصورة عن طبعة دار الكتب ، ٢/ ١٦٨ ، ١٦٩ .

(٣) ديوان حسان بن ثابت الأنصاري ، دار صادر للطباعة والنشر ، دار بيروت للطباعة والنشر ، بيروت ، ١٩٦٦ ، ص : ٢١٥ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

إنْ كُنْتِ كاذبةَ الذي حدّثتِنِي ... فنَجَوْتِ منجى الحارث بن هشامِ
ترك الأحبّةَ أنْ يقاتلَ عنهمُ ... ونجا برأسِ طِمِرّةٍ ولِجامِ

فأجابه الحارث بن هشام بأبيات يعتذر فيها (١) :

الله يعلمُ ما تركتُ قتالهمْ ... حتى عَلَوْا فرسي بأشقرَ مُزْبِدِ
وشَمَمْتُ ريح الموت من تلقائهمْ ... في مأزقٍ والخيل لم تتبدّدِ
وعلِمْتُ أنّي إنْ أقاتلْ واحدا ... أُقْتَلْ ولا يضرُرْ عدوّي مشهدي
فصدَدْتُ عنهم والأحبّةُ فيهمُ ... طمعاً لهم بعقابِ يومٍ مُرْصَدِ

ويجمع عمرو بن معد يكرب الزبيدي حالتي الثبات والفرار في أبيات ، إلاّ أنّه يضطر للحالة الثانية ، ويُسوّغها بأنّ الشجاعة ليست في أن يحمل المرء نفسه على الهلاك ، يقول (٢) :

ولقد أجمع رجلَيّ بها ... حذرَ الموتِ وإنّي لفرورُ
ولقد أعطِفُها كارهةً ... حين للنفسِ من الموت هريرُ
كلُّ ما ذلك منّي خلقٌ ... وبكلٍّ أنا في الروع جديرُ

وهذا شاعر تي خراسان أيام بني أميّة وهو الحَرِيش بن هلال القُرَيْعي ، يعتذر من تقصيره عن إغاثة أصحابه من بني تميم ، في فتنة عبد الله بن خازم ، وقد قتلوا ، فنراه يعتذر بأنه بذل كل ما في وسعه ، وينعى على قومه تخاذلهم وجبنهم ، ويرثي أبطال قبيلته الذين لاقوا مصارعهم ، ويصوّر ما انتابه من غمّ وهمّ وما أصابه من قنوط ويأس (٣) :

أعاذِلَ إنّي لم أُلِمْ في قتالهمْ ... وقد عضّ سيفي كبشهم ثم صمّما
أعاذل ما وَلّيْتُ حتى تبدّدتْ ... رجالٌ وحتى لم أجِدْ متقدَّما
أعاذل أفناني السلاحُ وَمَنْ يُطِلْ ... مقارعة الأبطال يرجعْ مُكَلَّما
أعينيّ إن أنزفتما الدمع فاسْكُبا ... دماً لازما لي دون أن تسكبا الدّما

---

(١) شرح ديوان الحماسة ، التبريزي ، ١/ ١٨٣ ، ١٨٤ .
(٢) شرح ديوان الحماسة ، التبريزي ، ٢/ ١٧٦ ، ١٧٧ . وحماسة البحتري ، ص: ٤٢ . والتذكرة السعديّة ، ص : ٦٨ .
(٣) تاريخ الطبري ، أبو جعفر محمد بن جرير الطبري ، تحقيق وشرح محمد أبو الفضل إبراهيم ، دار المعارف بمصر ، القاهرة ، ١٩٦٠ ، ٦/ ٨٠ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أبعد زهير وابن بشر تتابعـــا ووردٍ أُرَجِّي في خراسان مغنمـا
أعاذِلَ كم مِنْ يوم حربٍ شَهِدْتُــهُ أكرُّ إذا ما فارس السوء أحجمـا

إن استمرار الحرب واشتداد ضراوتها قد تركت أثرها في شعر الحرب ذاته ، وفي توجّهه الوجهة المتحقّقة من الاغراض التي كان يسعى إليها الشعراء ، فكانت مجاميع شعر الحرب موزّعة بين (الموثّبات) و (المنذرات) و (الموئّبات) و (المنصفات) .

وفي كل باب من هذه الأبواب تتماثل المعاني ، وتتفّق الدلالات ، ويحرص الشعراء أو الشواعر على تصويرها وتجميعها ، لتأخذ طريقها إلى كل نفس ، وتؤدّي دورها عند كل موقف ، لانّ هذه الأصناف كانت تمثّل وجها من وجوه الحرب .

وتظلّ المنصفات ، التي أنصف فيها الشعراء خصومهم ، وذكروا فيها ما أبدوه من صلابة في الجلاد ، وقدرة على المقاومة ، تمثل الجانب الخلقي الذى تميّز به العرب ، حتى في حروبهم وقتالهم (١) .

إنّ أخلاق الفروسيّة التي تعلّمها الشاعر ، سواء كان مع قومه في ساحة المعركة ، أوكان بعيداً عنها ، وهي الشجاعة والثبات على المبدأ ، وبذل الأرواح رخيصة في سبيل الدفاع عن الحمى أو الدين ، قد دفعته إلى أن ينقل ما جرى بين قومه وخصومه بصدق وواقعية ، فيكون بذلك لسان حال قومه وحال أعدائهم .

وكان الشاعر غالبا ما يستند إلى واقع المعركة ، فإذا انتصر قومه فيهمّه أن يُظهر خصومهم بالمظهر القوي ، وفي هذا رفع لشأن الفريقين ، وأما إذا هزم قومه ونكّل بهم صوّر شجاعة أعدائهم ، وفي هذا رفع لشأن أعدائهم وتسويغ لهزيمة قومه . أمّا إذا أسفرت المعركة عن تكافوء في النتيجة ، نجده مضطرا — إذْ لا مناص من الحقيقة — أنْ يصف ما اصطلاه الفريقان من حرِّ اللقاء بينهما على وجه الصدق والتعادل .

---

(١) انظر : شعر الحرب حتى القرن الأول الهجري ، ص : ٦٧ ، ٦٨ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

تطـــوّر المنصفـــــات :

إنّ المنصفات في صدر الاسلام والعصر الأموي هي امتدادٌ للمنصفات في العصـــر الجاهلي شكلا ومضمونا ؛ لأنّ شعر الفتوحات الإسلامية ، هو استمرار لشعر الحرب قبل الاسلام ، ولأنّ كثيرا من المقاتلين ، الذين جرّبوا حظهم في الحروب الأولى ، كانوا من المقاتلين البارزين، في صدر الإسلام ، ولأنّ القيم التي عرفوها في أدب الحرب ، والمثل التي عاشوا عليها ، فـــي إكبار البطولة والشجاعة ، والإشادة بها ، ظلّت ملازمة لهم في هذا العصـــــر (١) .

ولكنّ السؤال الذي يفرض نفسه ، هو هل طرأ على هذه القصائد تطوّر ، من حيـــث معناها ومبناهـــــا ؟

والحقيقة أنّه يصعب الإجابة عن هذا السؤال ، دون معرفة المستجدّات في عصـــر صدر الإسلام والعصر الأموي ، ودون تبيّن حالة الشعر في ظل تلك المستجدّات والمتغيّـرات.

وقـد أثّر في موضوعات هذه القصائـد ومستواها الفنـي عنصران مهمّان ، وهمـا العقيـدة والسياســـة .

أولا : موضوعـات المنصفـات وأفكارهـــا :

١. العقيـــــدة :ـ

أثّرت العقيدة الإسلامية في موضوعات شعر الحرب عامة ، وشعر الإنصاف خاصة ، تأثيرا كبيرا ، فقد بدأ المفهوم السياسي بظهور الإسلام ، يشيع شيئا فشيئا في الشعر العربي ، حيـن استطاعت العقيدة أن تعلو على صوت الانتماء القبلي ، وأن تجمع طائفة كبيرة من أبناء قبائـــل، ومواطن مختلفة حول مبدأ واحـــــد .

على أنّه كان من الطبيعي ، وقد قام هذا البناء الجديد ، على أساس من العقيـدة، أن تظلّ العقيدة محور الخصومة بين هذا المجتمع الجديد ، وغيره من القبائل والمجتمعـات، وأن تكون تلك القضايا السياسيّة ، جزءاً لا ينفصل في الشعر عن قضايا العقيدة ، وإن بـدتْ مستقلّة، إلى حدّ ما في شعر المكّيين المناوئين للإسلام ، ممن كانوا يظنّون أنّ الدعوة قامـت ،

(١) انظر : شعر الحرب حتى القرن الأوّل الهجـري ، ص: ١١٢ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

لتستأثر بالملك والثروة من دونهم (١) .

ومن الطبيعي ، أن يأخذ الشعر في إطار هذا الصراع حالة تختلف ، من حيث المضامين والمعاني والتناول ، ما أخذه الشعر قبل الإسلام ، بسبب التغيّر الأساسي في المعايير ، والتبدّل الجوهري في معالجة المسائل ، وأساليب المخاطبة التي بدأت تتغيّر لهجتها ، وطرق المحاججة التي استخدمت فيها الصيغ الحديثة (٢) .

فكما وقف الشاعر الجاهلي يذكر الوقائع والمآثر والصفات الخلقيّة والأنساب لقومه وخصومه ، وقف الشاعر الاسلامي وقفته ، ولكنّ الحياة الجديدة التي فرضها الإسلام ، صبغت هذه الموضوعات التي أقام عليها الشعراء الجاهليّون منصفاتهم بصبغة إسلاميّة ، وأبرزتها ووضعتها في قالب جديد ، فغدت القيم متبلورة تصبّ في إطار الدين . فقد جاء الإسلام ، وأقرّ القيم الجاهلية التقليدية ، كالشجاعة والكرم والصبر وغيرها ، بل نمّاها وطوّرها لتصبّ في اطار الدين ؛ فالشجاعة مثلا ، كانت غايتها في الجاهلية الدفاع عن حمى القبيلة ، أما في الإسلام ، فهي شجاعة منبثقة عن عقيدة ، غايتها نصرة دين الله والدفاع عن الحق . والصبر كذلك ، الذي كان يعني في الجاهلية الصبر على ظروف البيئة الجاهلية القاسية ، التي تستدعي البحث عن الكلأ إذا أجدبت الأرض ، والصبر في الحرب أيضا ، إلا أنه في الاسلام اتّسع مدلوله ، حتى أصبح يشمل الصبر في جميع نواحي الحياة ، الصبر في الحرب الداعية إلى الشجاعة ، الصبر والثبات على الحق وغيرها .

وإذا كان شعر الحرب في العصر الجاهلي ، يشكل الاتجاهات العامّة لبناء القصيدة الحربيّة ، من حيث التهيّؤ والبناء ، ومن حيث الاستعداد والمقاومة ، فإن شعر الفتوحات الإسلامية ، ظلّ يمدّ مضامين الشعر بمعاني العقيدة ، التي رسّختها قدرة الدين الجديد ، الذي ملأ على العرب حياتهم ، وجدّد فيهم روح التضحية والفداء .

وبذلك يكون الشعر قد خرج من نطاق الجانب القبلي ، وابتعد عن بعض الأغراض التي كانت أهدافها محصورة في أطر ضيّقة ، وتطوّرت مضامينه وفق توسيع الحدود المعروفة ، واستيعاب الأفكار التي تتلاءم مع الواقع الجديد ، الذي يحفظ للأمة وحدتها ، ويصون عقيدتها ،

(١) انظر : في الشعر الإسلامي والأموي ، د . عبد القادر القط ، دار النهضة العربية للطباعة والنشر ، بيروت ، ١٩٧٩ ، ص : ٢٧٥ .
(٢) انظر: شعر الحرب حتى القرن الأول الهجري ، ص : ١١٤، ١١٥ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ويوثّق الصلة بين أبنائها لخدمة أغراضها ، بعد أنْ توجّهت فنون الشعر إلى تعميق مفاهيم العقيدة ، وترسيخ معانيها في النفوس، والدعوة إلى الثبات ، والحضّ على الجهاد ، والتغنّي بنصرة الحقّ .

وكما وقف الشاعر الجاهلي وقفة طويلة عند سلاحه ، وهو يناجيه ويتحدّث إليه ، ويتأمّل قدرته ومضاءه ، ويتابع تاريخه وبلاءه ، فقد وقف الشاعر الإسلامي عند هذا الحديث وبالصيغ التي تقارب تلك الصيغ ، فالقوس التي ذكرها أوس بن حجر ، وتحدّث عنها الشنفرى، وأطال وأسهب في متابعة مراحلها الشّماخ ، فكان كعب بن مالك يذكر تلك المراحل ، ويشير إلى صنعها ، والشجر الذي تؤخذ منه ، وقمم الجبال التي تكون عادةً موطنا للنبع ، ولكنّ وقوفه لم يكن طويلا عن متابعة الدقائق الأخرى ، التي عاشها الشاعر الجاهلي ، لأنه، في الغالب، كان يقتطع الحديث لغرض الإيفاء بالتزامات الجودة ، التي يريد أن يضيفها على سلاحه ، المشاركة التي حملها هذا السلاح ، والذي يدخل في أوصافه ، وهي إشارة جديدة إلى أنّ الشاعر ذكر السهام التي تُرشّ بالسّم ، لتكون قاتلة مصمية ، ولتظلّ آثارها واضحة فيمن تصيبه ، وقد فصّل كعب بن مالك ذلك في قوله (١) :

تهادى قِسيُّ النبع فينا وفيهمُ ... وما هو إلاّ اليثربيُّ المقطّعُ
ومَنْجُوفَةٌ جِرْمِيَّةٌ صاعِدِيَّةٌ ... يُذرُّ عليها السمُّ ساعةَ تُصْنَعُ
تصوب بأبدان الرجال وتارةً ... تمرُّ بأعراض البِصارِ تَقَعْقَعُ

وقد حاول كعب بن مالك أنْ ينصف خصومه ، كما أنصفهم من قبله الشعراء ، بقصائد حملت معنى الإنصاف ، واعترفت لهم بمعنى البلاء والمقاومة ، وأشادت بصمودهم ، الذي كان مثار الإعجاب ، فهو يشيد برميهم وسهامهم ، ويذكر فعلها في قومه ، كما هي تفعل في المشركين ، وبذلك عبّر عن قدرة السلاح ، وتصويب الرمي ، ودراية القتال ، وهي تشبه أبيات عمرو بن كلثوم الذي يقول فيها :

كأنّ سيوفَنا فينا وفيهمْ ... مخاريقٌ بأيدي لاعبينا
كأنّ ثيابنا منّا ومنهمْ ... خُضِبْنَ بأُرْجُوانٍ أو طُلِينا (٢)

---

(١) ديوان كعب بن مالك الأنصاري ، دراسة وتحقيق سامي مكي العاني ، مكتبة النهضة، بغداد، ١٩٦٦ ، ص: ٢٢٦ .

(٢) انظر: شعر الحرب حتى القرن الأول الهجري ، ص: ١٠١ ، ١١٥ ، ١١٦ ، ١١٧ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

فالعقيدة قد أثّرت في موضوعات القصائد المنصفات ، إذْ أسبغت على القيم والمآثر الخلقية التي تغنّى الشعراء بها في أشعارهم الحربية طابعا متميّزا وضافيا . ومن ناحية أخرى ، تشكل العقيدة في المنصفات الإسلامية والأموية ، عنصرا يتكئ الشاعر عليه ، في تفضيل قومه المسلمين على خصومهم المشركين ، وهذا كعب بن مالك يفخر على المشركين بالعقيدة الإسلامية التي أنزلها الله سبحانه وتعالى على الرسول محمد صلى الله عليه وسلم ، مؤكّداً قيمة العقيدة في الحرب ، وذلك في أبيات يردّ فيها على هبيرة بن أبي وهب في أحد ، يقول (١) :

وفينا رسولُ الله نَتْبَعُ أمره ... إذا قال فينا القول لا نتطلّعُ
تدلّى علينا الروحُ من عند ربّه ... ينزّلُ من جوّ السماء ويُرْفَعُ
وكونوا كمن يشري الحياة تقرّباً ... إلى ملك يُحيا لديه ويُرْجَعُ
ولكن خذوا أسيافكم وتوكّلوا ... على اللهِ إنّ الأمر لله أجمعُ

كما ختم كعب الأشقري منصفته ببيان سبب نصر المسلمين على الخوارج ، بأنّهم اعتصموا بحبل الله ، ففازوا ونصروا ، وأنّ الخوارج كفروا باتّباعهم ديناً يخالف ما جاءت به الرسل ، وجاروا عن الحق فهزموا ، يقول (٢) :

إنّا اعتصمنا بحبل إذْ جحدوا ... بالمحكمات ولم نكفرْ كما كفروا
جاروا عن القصد والإسلام واتّبعوا ... ديناً يخالف ما جاءت به النّذرُ

---

(١) ديوان كعب بن مالك الأنصاري ، ص : ٢٢٤ ، ٢٢٥ .
(٢) تاريخ الطبري ، ٦ / ٣٠٨ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

٢ . السياسة :

لم يلتزم الشعر بالسياسة التزاماً حقّا ، إلاّ بعد مقتل الخليفة عثمان رضي الله عنه ، وما أعقبه من فتن وحروب أهلية متّصلة ، انقسم المسلمون فيها إلى شيع وأحزاب ، تتنافس على السلطة ، وتختلف في فهمها لنظام الحكم .

وحين استتبّ الأمر لمعاوية ، بعد مقتل عليّ كرم الله وجهه ، كان هناك عدّة أحزاب سياسية ؛ أهمّها ، الهاشميّون ، والخوارج ، والأمويون ، ثم القرشيّون الذين مثّلهم فيما بعد حزب الزبيريين ، وكان لكل حزب شعراؤه الذين يعبّرون عن أهدافه ، ومفهومه للحكم وحقّه فيه ، ويهاجمون خصومه ، ويشكّكون في حقّهم ، ويحطّون من شأنهم ، ويرمونهم بالمروق عن الدين . فكان الكميت شاعر الهاشميين ، وقطريّ شاعر الخوارج ، والأخطل شاعر بني أمية ، وعبيد الله بن قيس الرقيّات شاعر الزبيريّين . وكان من الطبيعي أن يستقطب كلّ حزب شاعراً من هؤلاء الشعراء .

والحقّ أن العقيدة قد ظلّت محوراً لتلك الخصومات السياسية ، بين تلك الأحزاب ، يلتمس كل حزب فيها بياناً لحقّه ، وإعلاءً لشأنه ، وتأييداً لنظرته ، ويرمي سواه من الأحزاب بالخروج عليها في السلوك والأخلاق ونظام الحكم .

على أنّ كثيرا من الشعراء ، لم يستطيعوا أن يخلصوا من الانتماء القبلي القديم ، وظلّوا يفخرون بأنسابهم ، وأيام قبائلهم في الجاهلية ، ومآثر آبائهم وأجدادهم في القِرَى والنجدة والبأس ، ولعلّ الأمويّين كانوا من أكثر الشعراء ميلا إلى هذا الاتجاه(١) .

وقد وجد الأمويون أنفسهم ، في حياة غير التي عرفها العرب قبل الإسلام ، فحياة الأمويين في تحضّر ، وشعرهم في تطوّر ، وسياستهم في تعقّد ، وفتوحاتهم في تأزّم ، وكانت معايشهم ، وضروب مرافقهم الخاصة والعامة ، في انقلاب جديد ، ككلّ انقلاب يعتري الأمم حين تخرج من دنيا قديمة ألفتها ، إلى دنيا حديثة لا عهد لها بها من قبل .

---

(١) انظر : في الشعر الاسلامي والأموي ، ص: ٢٧٦ ، ٢٧٧ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وكانت كلّ ناحية من نواحي هذا التحضّر ، تُظهر الظهور العربي الجديد . وكان الشعر أحد الأمور التي ظهر خطرها في هجمة العصر الأموي ، وقد أعدّ نفسه لمهمّة كبرى ، وكأنّه كان يستشعر بها ، قبل أن ينهض بأعبائها الجِسام ، في منظومات الحماسة ووصف الحرب ، إذْ كان العصر الأموي ، وما فيه من حروب وفتن ، وازدحام سياسات ، قد حتّم على الشعر هذه التسخيرة الضروريّة ، وتلك الخدمة المقرّرة ، فخضع شعر العصر الأموي لسلطان الحرب والسياسة ، وقد رفده ميراثٌ ضخم صار إليه من الجاهلية . وأيّ شعر في الحماسة والحرب ، أشد وقيداً ، وأبعد أثراً من الحماسة الجاهليّة وشعر الحرب فيها ؟ (١)

ويقول الدكتور زكي المحاسني (٢) : " لا يكاد يأخذ بإعجابي وصف حرب ، قاله أحد شعراء العصر الأموي ، فأرى خلاله رَهْط المقاتلين يتلاحمون بين الحياة والموت ، وألمح لمعات الأسنّة والسيوف تقع في اللّبات والنّحور ، وأسمع زمازم الجيش تمور في حومة الوغى ، حتى يعكّر عليّ صفاء هذه الصورة ، وبراعة هذا الوصف ، أبياتٌ في أواخر القصيدة ، أو في أثنائها ، يحاول بها الشاعر أن يُعفّي على آثار قوم آخرين في الشجاعة والبأس . وقد لا يتورّع عن إيذائهم بالهجاء ، وسلبهم كلّ خصال المروءة والحميّة التي عرفت فيهم . فهو أبداً يسعى إلى إعلاء قومه ، فيخلع عليهم صفات المكارم والفضائل ، وينزعها عن سواهم ، حتى بات كثيرٌ من أقوال هذه الطائفة من الشعراء ، منوطاً علاؤه بخفض غيرهم . وكلما زاد تهجين الشاعر لأعدائه وذمّه إياهم ، انطلق جناحاه في أجواء الثناء على نفسه وعلى قومه .

وقد لا يظلّ هذا المدح والهجاء في قصيدة الشاعر الواحد ، وإنما يتجاوزانه إلى أكثر من شاعر ، فينبري من يقول قصيدةً ، أو أبياتاً في ذمّ خصومه في الحرب ، وحَمْد قومه ، فيتصدّى له شاعر آخر يردّ عليه بذمّه ، ومدح نفسه وقومه ، ثم يدخل آخرون في الحلقة بمثل دَيْدَن السابقين ، فتصبح معالم الوصف الصادق مشوّهةً على من جاء يستقصي ، فيحار متلمّساً ، أيّ قوم أشجع وأفتك ، وأشدّ بأسا في وقيعة ، وأيّ معشر فيهم سجايا الفروسية ، ولأيّ كتيبة النصر ؟

وقد يكون دافع الذمّ أو حافز المديح ، دسيساً من خليفة أو أمير ، أو نزعةً من حزب أو مذهب ، أو تحيّزاً من عصبيّة أو قبيلة . والشواهد على ذلك كثيرة .

(١) انظر: شعر الحرب في أدب العرب في العصرين الأموي والعبّاسي إلى عهد سيف الدولة ، د . زكي المحاسني ، دار المعارف بمصر ، القاهرة ، ١٩٦١ ، ص: ٤٥ .
(٢) انظر: المرجع السابق ، ص: ٤٥ ، ٤٦ ، ٤٧ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

فانّ المختار أبا إسحق بن عبيد الثقفي ، لمّا نادى : يا لثارات الحسين ! وأخذ يقدّم الناس للقتل بغير رأفة ولا تحقيق ، انتقاماً لسبط الرسول ، وجعل ينقضّ على المناوئين للزبيريّة ، فيرمي بهم في السجن ، أو يتركهم يشردون هروباً من بطشه ، أمسك فيمن أمسك بهم ، بسراقة بن مرداس البارقي الشاعر[١] ، فطرحه في السجن ، فتكلّف هذا الشاعر مدح المختار ، ووصف شجاعة جمعه ، تخلّصا من الضيم ، وفكاكا لنفسه من السجن .

وزاد في تزوير رأيه ، واصطناع المدح والثناء للمختار ، أن قال له ، أيّها الأمير إنّي رأيت الملائكة تقاتل على الخيول البلق بين السماء والأرض ، ويريد أنّها كانت تقاتل مع المختار ، فأمره المختار أن يصعد على المنبر ، فيخبّر المسلمين بهذا ، فلما فعل أدناه وقال له : إنّي أعرف أنّك لم تر الملائكة ، وإنّما فعلت هذا كيلا أقتلك ! فاخرج لوجهك ، ولا تفسد عليّ أصحابي .. فلما خلا السبيل لهذا الشاعر ، خرج من الكوفة ، فقلب ظهر المجنّ ، وأفسد بشعره ذكر شجاعة المختار وبأسه ".

ويقول[٢] : "ولا أستطيع أنْ أغلو فأدّعي أن شعر الحرب في أدب العرب ، لا يخلو مِنْ ربقة السياسة ، فإنّ ثمة شعراً كثيراً ، قد تكون السياسة دافعة إلى قوله ، لكنّه هو في حدّ نفسه شعر قيل للحرب وحدها ، فلم يتصدّ إلى تكدير شجاعة الأعداء ، ورميهم بالجبن والعار . وهذا نجده كثيراً في أشعار الجاهلية ، إذْ كان من أمانة شعرائهم الحربيّين ، أنْ يعترفوا لخصومهم بالسطو والبأس والنجدة والمروءة ، وأنْ يُنْصِفوهم وهم يمدحون أنفسهم ، فلا يذمّوهم ولا يجرّدوهم من صفات الفروسية الحقّة التي يعترفون لهم بها . وكان بذلك شعرهم الجاهلي أصدق وصفاً للحرب ، من شعر الحرب الذي بعد الجاهلية ، إذْ داخلته السياسة ، فصار لونه من ألوان أصحابها " .

ثمّ يسوّغ الدكتور المحاسني مداخلة السياسة لشعر الحرب الذي بعد الجاهلية ، فيقول[٣] : "وأحسب أنّ ذلك ليس بضائره ، لأنّ حياة العرب ، وحالة دول الاسلام ، كانتا تستدعيان مثل تلك الألوان في شعر الحرب ، لكثرة ما تجاذب الشعراء من أهواء ، ومنازع بعضها ديني وبعضها سياسي ، وسواء أكان هذا هو السبب الذي بعث عليها أم ذاك ، فإنّ منها

(١) انظر: تاريخ الطبري ، ٦/ ٥٤ .
(٢) انظر: شعر الحرب في أدب العرب ، ص: ٤٨ ، ٤٩ .
(٣) انظر: المرجع نفسه ، ص: ٤٩ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

قصائد في شعر الحرب ، يعتزّ بها الأدب العربي ، لما فيها من دقّة التصوير ، وبراعة الوصف ومتانة الديباجة " .

فشعر الإنصاف في الجاهلية يُعدُّ أكثر صدقا منه في العصر الأموي ، وذلك لأن السياسة تدخّلت في شعر الحرب في العصر الأموي، فنرى الشاعر مدفوعاً — بولائه لقومه — إلى تفضيلهم على خصومهم حتى حين ينصفهم ، ونراه يجنح في آخر قصيدته المنصفة لمحاباة قومه والاعتداد بهم ، خوفاً من تعنيف قادته له لإنصافه لخصومه . ونستثني من هذا شعر الخوارج الذى ندب أصحابه أنفسهم لغاية أسمى من الغايات الدنيوية ، فوصفوا أنفسهم وخصومهم على السواء بصدق نابع من إيمانهم بمبادئهم ومثلهم العليا ، ومهما يكن من أمر ، فإنّ السياسة لم تكن تمنع الشعراء الأمويّين من إنصاف خصومهم تقديرا لشجاعتهم ، فكان لنا من شعرائهم منصفين ، وكان لنا في أشعارهم الإنصاف .

ثانيا : السمات الفنّية للمنصفات :

إنّ الشعر في صدر الاسلام ، فقد في معظمه — وبخاصّة الشعر السياسي — ما في الشعر الجاهلي ، من خيال حيّ ، واقتدار لغوي ، والتصاق بالطبيعة ، والمزاوجة بينها وبين مشاعر الانسان ، وأنّه في كثير من الأحيان ، قد أصبح أقرب إلى النظم منه إلى الإبداع.

وهذه الظاهرة أوضح ما تكون في شعر هؤلاء الشعراء ، الذين اتّصلوا اتّصالا وثيقاً ، ممتدّاً بالصراع بين المسلمين والمشركين من أهل مكّة ، وغيرهم من العرب، سواء منهم من كان في جانب الإسلام ، ومن كان منهم في الجانب الآخر . ذلك لأن هؤلاء الشعراء قد واجهوا منذ البداية — وبخاصة المسلمين منهم — عبء الاتّصال المباشر بالقيم الجديدة ، وما تحمله من مظاهر التغيّر في الأخلاق ، والسلوك ، والقيم الاجتماعية والروحيّة . كما كان عليهم أن يشاركوا مشاركة مباشرة ، مستمرّة في المعركة من جانبها الكلامي . ولم يكن من اليسير على شاعر قضى الجانب الأكبر من حياته في الجاهلية — كحسّان بن ثابت مثلا — أنْ يجد لنفسه أسلوبا جديدا في الشعر ، يحسن التعبير عن تلك القيم والقضايا الجديدة ، ويحتفظ في الوقت نفسه بتلك الخصائص الفنّية ، التي نمت وتطوّرت في ظلّ مجتمع مختلف في قيمه وقضاياه .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

والحقّ أنّ مرحلة الانتقال تلك كانت بالغة القصر ، إذا ما قيست بالتحوّل الهائل الذي طرأ على الحياة العربية بعد الفتوحات الاسلامية . ويُلاحِظ الدارس أن الشعراء منذ السنوات الأولى للإسلام ، قد بدأوا يتأثرون تأثّرا واضحا بالمعاني الدينيّة الجديدة ، وبالأسلوب القرآني ، مما يؤكّد أنّ مواجهة الشاعر المخضرم للمجتمع الجديد ، كانت مواجهة سريعة فرضت عليه ، إما التكيّف السريع كما هو عند حسّان بن ثابت وكعب بن مالك الأنصاري ، أو الصمت التام كما تذكر الرواية عن لبيد ، أو المُضيّ على طريق الشعر الجاهلي ، إلاّ ما كان من تأثّر يسير كالذي نراه عند الحطيئة[1] .

وقد فاجأت الشعراء ، فترة الانتقال هذه بتجارب جديدة ، ليس في الشعر العربي رصيدٌ سابق في التعبير عنها ، يمكن أن ينتفعوا به . وهكذا صوّر هؤلاء الشعراء الوقائع الحربيّة بين المسلمين والمشركين ، كما كان الشعراء الجاهليون يصوّرون أيام العرب ووقائع القبائل .

ومن الملاحظ ، أنّ طائفة كبيرة من ألفاظ الشعر الجاهلي ، قد قلّ استخدامها بالتدريج منذ ظهور الإسلام ، حتى كادت تختفي تماما بعد استقرار المجتمع الاسلامي في وضعه الحضاري الجديد ، إلاّ ما كان منها عند بعض الشعراء المقلّدين ، أو الذين يقصدون قصداً إلى هذا الغريب ، بُغْية مجاراة الفحول من القدماء . ونلاحظ أنّ أغلب هذه الألفاظ التي أسقطتها اللغة العربية بعد الاسلام ، ممّا يدور حول وصف الناقة والجواد والظباء وحمر الوحش ، وغيرها من الأوابد[2] .

ومع ذلك ، فإنّنا لا نعدم ورود بعض هذه الألفاظ الجاهلية في المنصفات الاسلامية والأموية ، لأنّ المنصفات في صدر الاسلام والعصر الأموي — كما أسلفنا — هي امتداد للمنصفات الجاهلية شكلاً ومضموناً ، فكان من الطبيعيّ أن يجاري شعراؤها شعراء الحرب الجاهليين في منصفاتهم ، من حيث البناء الفني ، والألفاظ والمعاني ، والصور الشعرية ، والأوزان والقوافي كذلك .

لذلك فقد جاءت المنصفات في صدر الاسلام تحمل طابعا خاصّاً ، وهو طابع القديم الجديد ، القديم بمعمارها الفنّي ، وألفاظها ومعانيها ، وصورها الشعرية ، وأوزانها وقوافيها ،

(١) انظر: في الشعر الاسلامي والأموي ، ص: ١٢ ، ١٣ ، ١٤ .
(٢) انظر: المرجع السابق ، ص: ٤٦ ، ٢٣ ، ٢٤ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

والجديد بما استجدّ على الحياة الإسلامية من مفاهيم ومصطلحات ، وإنْ كانت المنصفات الجاهليّة أقوى بناءً وأمتن أسلوبا .

وقد استجدّت في صدر الاسلام والعصر الأموي ألفاظ وتراكيب إسلامية بمعان جديدة ، وأثّر القرآن الكريم في ألفاظ شعر الحماسة وتراكيبه ، مثل ألفاظ: الحق ، العدل ، القصد ، الروح ، التوكّل على الله ، المحكمات ، الاسلام ، الجنّة ، النار . مما لم يكن معروفا في العصر الجاهلي .

والحقّ أنّ من أهم التطوّر في الشعر العربي حينذاك ، تبلور تلك اللغة الإسلامية الحضرية ، بأساليبها وألفاظها ، بعد أن مرّت بمراحل من التطوّر التدريجي ، بدأت في تلك الفترة المبكرة من حياة الاسلام ، ثم اتّضحت معالمها في العصر الأموي[١] .

وصورها الشعرية بسيطة ، محدودة منتزعة من بيئة الشاعر المحدودة أيضاً ، التي لم تكن تسمح له بأنْ يحلّق بعيدا في صوره وخيالاته ، تماماً مثل الشاعر الجاهلي ، الذي لم يخرج في صوره وخيالاته ، إلى أبعد من حدود قبيلته ، أو الجزيرة العربية على أكثر تقدير ، ولم يتخيّل إلاّ ما يراه حوله ، وما يراه ماثلا أمامه ، كما أنّه لم يستطع أن يتخيّل صورة معقّدة مركّبة من عدّة صور ، بل إنّ صوره وأخيلته بسيطة غير معقّدة . ولا نجد سبباً لذلك إلاّ طبيعة الحياة القلقة التي كان يحياها ، والتي كانت ترتبط بالمادية ارتباطا وثيقا . والشعر الجاهلي عامة ، لم يكن من نمط الخيال الابتكاري ، أو المركّب ، بل كان حسّيا مرتبطا بالواقع ، وصوره منتزعة من بيئته في شبه الجزيرة مترامية الأطراف ، فقوّة الفارس تشبه قوّة الأسد ، أو أي وحش ضار يخشاه ذلك العربيّ في صحرائه[٢] ، وكذلك الشاعر الاسلامي ، فلم تخرج المنصفات الاسلاميّة في صورها الشعرية إلى أبعد من حدود بيئة قائلها ، وهي منتزعة من عالمه الماديّ المحسوس ، ولم تأت هذه الصور مبتكرة ، وإنّما جاءت سهلة غير معقّدة ، وتكراراً للصور الشعرية الجاهليّة ، فكعب بن مالك عندما أراد أن يشبّه الرسول وسط جموع المسلمين ، فإنّه لم يجد غير صورة الشهاب والبدر يشبّهه بهما ، ممّا ألفه وشاهده في بيئته وسبقه إليه الشعراء[٣] :

---

(١) انظر: في الشعر الاسلامي والأموي ، ص ٢٩ .
(٢) انظر: الشعر وأيام العرب في العصر الجاهلي ، ص: ٣٤٠، ٣٥٢ .
(٣) ديوان كعب بن مالك الانصاري ، ص: ١٧٤، ١٧٥ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

فينا الرسولُ شهابٌ ثم يَتْبَعُــــهُ نورٌ مضيءٌ له فضلٌ على الشُّهُــبِ
يمضي ويذمُرنا عن غير مَعْصِيَتــــهِ كأنّه البدرُ لم يُطْبَعْ على الكــذبِ

ولم يجد غير صورة الأسد والنمر، عندما أراد أن يشبّه قوّة المسلمين والمشركين في يوم بدر (١) :

كنّا الأسودَ وكانوا النمرَ إذْ زحفوا ما إنْ نراقبُ من إلٍّ ولا نَسَبِ

ويُلاحَظ أنّ المنصفات في صدر الإسلام قد تراجعت قليلاً من ناحية فنّية، فقد قصّرتْ إذْ ضعف بناؤها وأسلوبها، واستحال بعضها إلى ضربٍ من ضروب النظم لا الإبداع.

أما إذا ما انتقلنا إلى العصر الأموي، فإننا نلاحظ أنّ تطوراً ملموساً أصاب القصائد المنصفات، وإنْ دام فيها التقليد الموضوعيّ والفنيّ للمنصفات في الجاهلية. ذلك التطوّر يتعلّق بالانفتاح السياسي والاجتماعي الذي أصاب حياة الشعر في العصر الأموي، والذي دفع عجلة الشعر الحربيّ إلى الأمام — ومنه شعر الإنصاف —، وأذكى روحه عن طريق التنافس بين الشعراء، بعد أن خبتْ جذوته أو كادت في صدر الإسلام.

فمن ناحية بناء القصيدة، كان إذا قدّم أحدهم لقصيدته بمقدمة فنّية، أحسنَ الربط بين تلك المقدّمة وبين موضوع القصيدة العام.

وألفاظها قويّة جزلة رصينة معبّرة عن معاني القوة والشدة التي يستدعيها وصف المعارك، فإنّنا ما نلاحظه على شعر الحرب في العصر الأموي، مشابهته لحماسة الجاهليّين، ففي كليهما جزالةُ لَفْظٍ وروعةُ ديباجة، حتى لا يكاد النقّار التفريق بين الأسلوبين، وإنْ خلا شعر الحماسة الأمويّة مما يُشْعر بالتغيّر والتطوّر الفنّي، كألفاظ الدين وتعابير الاسلام.

وقد فرض الشعر الحربيّ مَيْسِمَه على فصاحة الشعراء. فكان من ضرورة فنّه؛ وهو للحماسة والبأس والفخر والعزّة، أنْ تجيء أشعارهم فيه قويّة ورصينة، ذات جوس وجزالة، لتكون كلّها ظروفاً لقعقعة السلاح، وحمحمات الخيل، وصراع الأبطال، واحتدام المعارك، كما كثرت فيه معاني المبالغة في السطو والبأس لدواعيها الزمنيّة، فإنّ الحروب الأموية والفتن،

---

(١) ديوان كعب بن مالك الأنصاري، ص : ١٧٤.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

كانت تحمل على استنباط المعاني الجديدة في تصوير الحماسة والشجاعة والمقاتل ، مع اتّسامها بالألفاظ الدينيّة الجديدة ، والتعابير الإسلامية ، وذكر آيات من القرآن الكريم .

إنّ اتّساع الآفاق الاجتماعيّة والسياسيّة في العصر الأموي ، أغنى الشعر الحربيّ بالمعاني ، فكثرت فيه الأخيلة ، وقلّت فيه السذاجة الجاهلية[١] .

كما يُلاحظ إطالة الأنفاس في القصائد المنصفات في العصر الأموي ، فإنّنا لم نعثر مثلا على قصيدة منصفة في العصر الجاهليّ ، يزيد عدد أبياتها عن الأربعين .

لقد انتفع شعراء المنصفات في العصر الأموي بألفاظ الجاهليّين ومعانيهم انتفاعاً كبيراً ، ظهر في إشادتهم بالخبرة الحربيّة . ومن ناحية أخرى ، أمدّنا شعراء المنصفات ، من خلال تجاربهم ومشاهداتهم ، بحقائق كثيرة تتصل بالفتوح ، وبالبيئات التي ذهبوا إليها .

أمّا الأوزان والقوافي ، فقد استمرّ شعراء المنصفات الإسلامية والأموية ، ينظمون قصائدهم على البحور التي نظم عليها شعراء المنصفات الجاهلية ، كبحر الطويل وبحر الوافر ، وغيرهما ، ممّا يصلح لهذا الموضوع .

واستمرّوا كذلك يستخدمون القوافي على غرار الأوائل ، برغم الفترة الطويلة التي تربط بين العَصْرَيْن الجاهليّ والأموي ، والتي فرضت على كلّ عصر ذوقاً خاصّاً في اختيار القوافي الملائمة لقصائدهم ، كميْل الشعراء الجاهليّين إلى استخدام الرويّ المضموم ، وميل الشعراء الأمويين إلى استخدام الرويّ المكسور ، لأنّ "القبائل البدويّة كانت تميل إلى الضمّ ، في حين أنّ القبائل المتحضّرة كانت تميل إلى الكسر"[٢] ، إلاّ أنّ ذلك لم يُلْزِمْ شعراء المنصفات الاسلامية والأمويّة بالتقيّد بما تفرضه عليهم بيئاتهم ، فكانوا يبحثون عن القافية الأنسب ، والأرصن ، والأجزل ، بصرف النظر عن متطلّبات العصر والبيئة الجديدة .

---

(١) انظر: شعر الحرب في أدب العرب ، ص: ١٣٦ ، ١٣٧ .
(٢) انظر: في اللهجات العربيّة ، الدكتور إبراهيم أنيس ، مكتبة الأنجلو المصريّة ، القاهرة ، الطبعة السادسة ، ١٩٧٧ ، ص: ١٢٤ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الفصل الثاني

" المقوّمات الموضوعية والفنّية للقصائد المنصفات "

- المقوّمات الموضوعية للمنصفات .
- السّمات الفنّية للمنصفات.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

المُقوِّمات الموضوعيّة للمُنْصِفَات :

تقوم القصائد المنصفات على عناصر يبني منها الشاعر منصفته . هذه العناصر يمزجها الشاعر في منصفته بنسب متفاوتة حسبما يقتضيه المقام وهي :—

١ . الوقائع الحربية :

تعدّ الوقائع الحربيّة أبرز عناصر القصائد المنصفات ، إذْ فيها يتحدّث الشاعر عمّا أوقع أعداؤه بقومه ، وما أوقع قومه بهم . فبعد انتهاء المعركة يُعْنى الشاعر بذكر هذه الوقائع وتسجيلها .

فالمفضّل النّكري ، يذكر كيف سار قومه إلى خصومهم ، وسار خصومهم إليهم ، والتقوا بـ "غبية ذي طُرَيْف" ، وبدأت المعركة بينهم بتراشق النّبال ، ثم تركوا الرماح ، وقاتلوا بالسيوف ، يقول(١) :

تلاقَيْنا بغَبيةِ ذي طُرَيْفٍ	وبعضُهمُ على بعضٍ حَنِيقُ
فجاؤوا عارِضاً بَرِداً وجئنا	كسيل العِرْضِ ضاق به الطريقُ
مَشَيْنا شطرهُمْ ومَشَوْا إلينا	وقلنا اليومَ ما تُقضى الحقوقُ
رمَيْنا في وجوهِهِمُ بِرَشْقٍ	تَغَصُّ به الحناجرُ والحُلُوقُ
فأَلْقَيْنا الرِّماحَ وكان ضرباً	مقيلَ الهامِ كلُّ ما يذوقُ
كأنَّ هزيزنا يومَ التقيْنا	هزيزُ أباءةٍ فيها حَريقُ

ويفصّل عبد الشارق الجُهَني في المعركة التي وقعت بين قبيلته جُهَيْنة وخصومها قبيلة بُهْثَة ، ويذكر أنّ المعركة بدأت بينهما وقد سمعت جهينةُ صوتاً عن ظهر غيب ، فأفزعها ذلك الصوت ، فصالتْ صولة ، ثمّ لمّا خشيت كميناً من الأعداء ارعوتْ . ثم بدأ الرمي بالأقواس والسّهام ، ثم لما فنيت كِناناتهم ، مشى بعضهم نحو بعض . فيقتل من بهثة أربعة فرسان ، ويقتل من جهينة مثلهم ، وتنتهي المعركة وقد تكسّرت رماحهم وانحنت سيوفهم(٢) :

---

(١) الأصمعيّات ، الأصمعي ، تحقيق وشرح أحمد محمد شاكر وعبد السلام هارون ، الطبعة الخامسة ، بيروت ، لبنان ، ص: ٢٠٠ — ٢٠٢ .

(٢) شرح ديوان الحماسة ، المرزوقي ، ص: ٤٤٦ — ٤٤٨ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

سَمِعْنا دعوةً عن ظهر غَيْــب ... فَجُلْنا جولة ثم ارعَوَيْنــا
فلمّا أن تواقَفْنا قليــلاً ... أَنَخْنا للكلاكل فارتمَيْنــا
فلما لم ندعْ قوساً وسهمــاً ... مَشَيْنا نحوهم ومَشَوْا إلينــا
شدَدْنا شدّةً فقتلتُ منهــم ... ثلاثةَ فتيةٍ وقتلتُ قَيْنــا
وشدّوا شدةً أخرى فجَــرُّوا ... بأرجلِ مثلهمْ ورمَوْا جُوَيْنــا

ويذكر الشعراء في منصفاتهم عُدّة الحرب وعتادها ، ولا ننسى أنّ الأسلحة كانت عند العربيّ في الجاهلية والإسلام محلّ اهتمامهم ، لذلك ظهر الحديث عن السلاح في أشعارهم ، خصوصاً عند أولئك الذين كانوا شعراء وفرسانا في آن معا ، فأسلحتهم هي الخيل الضامرة العابسة عند لقاء الأعداء ، يظهر ذلك جليّاً في قول العبّاس بن مرداس السلمي (١) :

إذا الخيل جالَتْ عن صريعٍ نكرُّها ... عليهمْ فما يرجِعْنَ إلاّ عوابســا

وفي قول خداش بن زهير العامري (٢) :

جَلَبْنا الخيل ساهمةً إليهــم ... عوابسَ يدَّرِعْنَ النّقعَ قُــودا

ومن أسلحتهم أيضا السيوف المُرْهَفة الصارمة ، ويظهر ذلك في قول كعب بن مالك الأنصاري (٣) :

فَسِرْنا إليهمْ جهرةً في رِحالِهــمْ ... ضُحَيّاً علينا البيضُ لا نتخشّــعُ

ويقول العديل بن الفرخ العجلي يصف خصومه ؛ بأنهم إذا حمل قومه عليهم ، قابلوهم بسيوف مرقّقة محدّدة ، تقطع السواعد من أعاليهــا (٤) :

إذا ما حملنا حملة مثلوا لنــا ... بمرهفة تذري السواعد من صعــد

ومنها الرماح الغليظة الشديدة السمهرية والخطّية ، نجد ذلك عند العبــاس

---

(١) الأصمعيات ، ص : ٢٠٦ .
(٢) الأغاني ، أبو الفرج الأصفهاني ، تحقيق عبد الستار أحمد فرّاج ، دار الثقافة ، بيروت ، ١٩٦٠ ، ٢٢ / ٧٠ .
(٣) ديوان كعب بن مالك الأنصاري ، ص: ٢٢٥ .
(٤) ديوان الحماسة لأبي تمام ، مختصر التبريزي ، علّق عليه وراجعه محمد عبد المنعم خفاجي ، مكتبة محمد علي صبيح ، القاهــرة ، ١٩٥٥ ، ١ / ٤٣٠ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ابن مِرْداس إذْ يقـــــول [1] :

إذا ما شَدَدْنا شدّةً نصَبُوا لهـــا صدور المذاكي والرماحَ المَداعِســا

وهذا الأعشى التغلبيّ ، يصف الرماح والسيوف التي تهوي على نحور قومه وخصومهم ، فكأنّها الشهب ، ويسمع من يقترب من أرض المعركة صوت تقطيعها كما يتقطّع القصب ، فيقول [2] :

ركدتْ فينا وفيهمْ ساعــــةً سمهريّاتٌ وبيــضٌ كالشُّهُـــبْ

يسمعُ السامعُ من وَخْضِ القنـــا ومن الضربِ كتقضيب القصَـــبْ

ويقول العديل العِجلـــيّ [3] :

كلانا يُنادي يا نزارُ ودونَنَـــا قناً مِنْ قنا الخَطّيِّ أو مِنْ قنا الهندِ

ومن أسلحتهم أيضا القِسِيّ المتّخذة من النبع أجود أنواع الخشب ، والسهام المنقوعة بالسمّ ، والدروع الواسعة الطويلة المنسوجة بإحكام ، وغيرهـــــا .

فالمفضّل النُّكريّ ، يفتخر بأنّ قومه اتّخذوا سهامهم وقسيّهم من شجر النّبع القـــويّ ، وتركوا صنعها من السِّدر الخَوّار الضعيف ، يقـــول [4] :

وجدنا السِّدْرَ خوّاراً ضعيفـــاً وكان النَّبْعُ مَنْبِتُهُ وثيـــــقُ

ويصف العبّاس السُّلمي حسن استعداد أعدائه للقتال ، بأنّهم لبسوا دروعاً محكمـــة منسوجة بإتقان ، يقول [5] :

ولكنّهمْ في الفارسيِّ فلا تـــرى من القوم إلاّ في المضاعف لابِسَـــا

وقال كعب بن مالك الأنصاري ، يذكر كيف تهادَى المسلمون والمشركون قِسِيَّ النبـــع ، والسهام المثقّفة بالسّـــم [6] :

---

(١) الأصمعيـــات ، ص: ٢٠٦ .
(٢) المكاثرة عند المذاكرة ، تصنيف جعفر بن محمد بن جعفر الطيّالسي ، تحقيق وتعليق محمد بن تاويت الطنّجي الأستاذ بكلية الإلهيّات من جامعة أنقرة ، ١٩٥٦ ، ص: ١١ .
(٣) ديوان الحماسة ، مختصر التبريـــــزي ، ١/ ٤٢٩ .
(٤) الاصمعيـــات ، ص : ٢٠١ .
(٥) المصدر نفســـه ، ص : ٢٠٦ .
(٦) ديوان كعب بن مالك الأنصـــاري ، ص : ٢٢٦ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

تهادى قِسِيَّ النَّبْعِ فينا وفيهمُ ... وما هو إلاّ اليثربيُّ المقَطَّعُ
ومنجوفةٌ حِرْمِيَّةٌ صاعِدِيَّةٌ ... يُذَرُّ عليها السُّمُّ ساعةَ تُصْنَعُ

ويذكر العديل بن الفرخ العِجليّ أنّ الفحول من قومه وأعدائهم ، يتساموْنَ في العزّ والشرف ، وهم يلبسون دروعاً سابغة ، منسوجةً حلقتين حلقتين ، يقول (١) :

قرومٌ تَسامَى من نزارٍ عليهمُ ... مضاعفةٌ من نَسْجِ داودَ والسُّغْدِ

إن الإنصاف في هذه القصائد ، يدور معظمه على محور قتالي ، ويقع في آفاق الإقرار للخصم بالبلاء الحسن في القتال .

٢ . المآثر والصفات الخلقيّة والأحساب والأنساب :

يعدّ ذكر المآثر والصفات الخلقية ، والتغنّي بالأحساب والأنساب ، من عناصر القصائد المنصفات ، وتتمثّل في الصبر والشجاعة والكرم والحلم وغيرها ، والتفاخر بأمجاد القبيلة وأحسابها .

فمن إنصاف التكافوء في مستوى الصبر على الشدائد ، قول المفضل النكريّ يصف صبر بني حُيَيّ في المعركة (٢) :-

همُ صبروا وصَبْرُهُمُ تليدٌ ... على العَزّاء إذْ بلغ المضيقُ

وقوله (٣) :

فلما استيقنوا بالصبر منّا ... تُذكّرت العَشائرُ والحَزيقُ

ويشيد العباس السّلميّ بثبات أعدائه ، ورسوخ أقدامهم أمام قومه ، فكلّ حملةٍ يحملها قومه عليهم ، يتّقونها بصدور الخيل والرماح الغليظة الشديدة ، يقول (٤) :

(١) ديوان الحماسة ، مختصر التبريزي ، ١/ ٤٣٠ .
(٢) الأصمعيّات ، ص : ٢٠٠ .
(٣) المصدر السابق ، ص: ٢٠٣ .
(٤) المصدر نفسه ، ص: ٢٠٦ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

إذا ما شَدَدْنا شدّةً نَصَبُوا لها صُدورَ المذاكي والرّماحَ المَداعِسَا

ويشيد كذلك زفر بن الحارث الكلابي في مقطوعته ، بصبر قيس وتغلب في وقعة مرج راهط ، يقول (١) :

فلمّا قرعنا النبع بالنَّبْعِ بَعْضَهُ ببعضٍ أبتْ عيدانُه أنْ تَكَسَّرا
سقيناهمُ كأساً سقونا بمثلها ولكنّهمْ كانوا على الموت أصْبَرا

ويصف كعب بن معدان الأشقري صبر المسلمين والأزارقة في القتال ، فيشبّههم بجبلين راسخين لثباتهما وصبرهما ، فيقول (٢) :

صَفّانِ بالقاعِ كالطَّوْدَيْنِ بينهما كالبرقِ يلمع حتى يشخصَ البصَرُ

وهكذا يتكرّر معنى الصبر ، ليكون بذلك من أهمّ المآثر التي يتغنّى بها الشعراء في منصفاتهم ، في الجاهليّة وصدر الاسلام والعصر الأموي .

ومن إنصاف التكافؤ في مستوى الكرم والحسب والنسب ، قول المفضّل النّكري يصف قتيلاً من أعدائه ، وقتيلاً من قومه (٣) :

قتلنا الحارث الوضّاحَ منهمْ كأنّ سوادَ لِمّتِهِ العذوقُ
وقد قتلوا به منّا غلاماً كريماً لم تُؤشّبْهُ العُروقُ

ويفتخر العبّاس السّلمي ، عند اشتعال نيران الحرب ، أنّ وقودها كلّ فتىً شامخ أشمّ الأنف ، يقول (٤) :

وكُنّا إذا ما الحرب شبّتْ نَشُبُّها ونضربُ فيها الأبلخَ المُتقاعِسَا

ويقول خداش بن زهير العامري في يوم شمطة ، يمدح خصومه من قريش (٥) :

أولئك إنْ يكنْ في الناس خيرٌ فإنّ لديهمُ حسباً وجُودا

---

(١) ديوان الحماسة ، مختصر التبريزي ، ١/ ٧١ .
(٢) تاريخ الطبري ، ٦/ ٣٠٧ .
(٣) الأصمعيّات ، ص: ٢٠٢، ٢٠٣ .
(٤) المصدر السابق ، ص: ٢٠٧ .
(٥) الأغاني ، ٢٢/ ٧٠ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وهكذا يستعمل الشاعر الاعتزاز أحيانا ، تهويلاً للأمر ، وتكثيراً للعشيرة ، ليستشعر كلٌّ من الفريقين الرعب من صاحبه ، والتهيّب له [(١)] ، فأفراد قبيلة الشاعر وخصومهم ، ليسوا ضِعافا خوّارين ، وإنّما هم كرامٌ صافو النسب أمحاض النجار .

ولعلّ المنصفات إنّما سمّيت بذلك ، لتناصف الفريقين في القتال ، والدليل على ذلك أنّ قسماً منها ، كانت نتيجة المعركة فيها تكافؤ الفريقين في القتال ، وتعادلهم في النتيجة؛ فالمفضل النكري يقرّر في نهاية المعركة ، بأنّ الحرب لما بلغت مداها ، وأيقن كلّ من الفريقين أنّ صاحبه صابر ، تذكّروا ما بينهما من أنساب وحقوق ، فعطفا الحنين والقرابة ، وكفّا عن القتال، وتهادنوا وأطلقوا الأسرى ، يقول [(٢)] :

فلمّا استيقنوا بالصبر منّا ... تُذكِّرتِ العشائر والحَزِيقُ
فأبقَيْنا ولو شئنا تَركْنا ... لُجَيْماً لا تقودُ ولا تسوقُ
وأنْعَمْنا وأبأسنا عليهم ... لنا في كلّ أبياتٍ طَلِيقٌ

ويذكر عبد الشارق الجُهني أنّ قومه وخصومهم رجعا من القتال وقد تكسّرت رماحهم ، وانحنت سيوفهم ، وأنّهم باتوا يئنّون من الجراح التي أثخنتهم ، فكفّوا عن القتال ، يقول [(٣)] :

فآبوا بالرماح مُكسّراتٍ ... وأُبْنا بالسيوف قد انحَنَيْنا
وباتوا بالصعيد لهم أُحاحٌ ... ولو خفّت لنا الكَلْمى سَرَيْنا

ويذكر عمرو بن برّاقة الهمداني أنّ المعركة بين قومه وخصومهم انتهت وقد غادرا الأحقاد والترات في أرض المعركة ، يقول [(٤)] :

وغادَرْنا وغادرَ موليانا ... بقاعِ أُبيدةَ الوَغْمَ الطويلا

ويدعو العديل بن الفرخ أهله إلى كفّ القتال بينهم ، بعد ما ذكر ما جرّته الحرب من ويلات عليهم ، وذلك في حكمة رائعة يصوغ فيها خلاصة تجربته في الحياة ، يقول [(٥)] :

---

(١) انظر: المنصفات ، ص : ٤٣ ، الحاشية .
(٢) الاصمعيّات ، ص : ٢٠٣ .
(٣) الأشباه والنظائر ، ١/ ١٥٣ .
(٤) منتهى الطلب من أشعار العرب ، تأليف أبي غالب بن ميمون ، مخطوطة المكتبة السليمانية ، مخطوطة دار الكتب ، مخطوطة جامعة ييل ، الجزء الثالث ، الورقة السادسة نقلا عن: قصائد جاهلية نادرة ، د . يحيى الجبوري ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، الطبعة الثانية ، ١٩٨٨ ، ص : ١٠٤ .
(٥) ديوان الحماسة ، مختصر التبريزي ، ١/ ٤٣٢ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

فأوصيكما يا ابنَيْ نزارٍ فتابِعَا ... وصيّةَ مفضي النُّصْحِ والصِدقِ والوُدِّ
فلا تعلمنّ الحربُ في الهامِ هامتي ... ولا ترْمِيا بالنبل ويحكما بعدي

إنّ المناسبات التاريخية التي قال فيها الشعراء الجاهليون منصفاتهم ، كانت معارك بين بطنين من بطون القبيلة الواحدة ، أو بين قبيلتين على الأكثر ، ولم تك معارك مركّبة معقّدة من ناحية اجتماعية ، كما هو الحال في العصر الاسلامي والعصر الأموي ، فقد كانت ضيّقة الرقعة ، ويمكن أن نسمّيها اليوم بالحروب الأهلية ، والدليل على ذلك ، أنّنا لو أمعنّا النظر فيها ، لوجدنا أنّ عدد القتلى من الفريقين غير كثير .

وكان شعراء المنصفات الجاهليّة يستندون في إنصافهم لخصومهم ، إلى رؤية ناضجة سليمة للأشياء تُرى من خلال وقائعها ، وإلى ثقافة الشاعر وموقعه القبلي الذي يدلّ على حكمته في تسليط الضوء على خصومه ليكيل قوتهم ، وتسليط الضوء على قومه ليبيّن قوّتهم ، وإنّ هذا الصنف من الشعراء ، شعره وحياته غير متناقضين ، ولذلك فإن الطابع الذي يحتذي القصائد المنصفات الجاهليّة هو "طرفان في معركة " .

أمّا القصائد المنصفات الاسلامية والأموية ، فإنّنا نلاحظ أنّها كانت تأخذ رقعة اجتماعية أوسع ، فتأخذ شكل نزاع بين عقيدتين أو مذهبين سياسيّيْن ، ولذلك كانت المعارك التي تقال فيها هذه القصائد ، معارك فاصلة بين المسلمين والمشركين كما في منصفتي كعب ابن مالك الأنصاري البائية والعينية ، وبين الأمويّين والخوارج كما في منصفة قطري بن الفجاءة المازني ، ومنصفة كعب بن معدان الأشقري .

وانطلاقا من سعة هذه الرقعة بين قوم الشاعر وخصومهم ، فإنّنا نجد أنّ القصائد المنصفات الإسلامية والأموية مع استمرار روح الإنصاف فيها ، نجد أصحابها مضطرين أن يحابوا الفئة التي ينتمون إليها ، سواء كانت عقيدة أو مذهبا ، ولذلك نجد شاعراً مثل كعب بن مالك الأنصاري يقرّر في نهاية القصيدة — بعد أنْ يشيد ببلاء المشركين يوم أحد — ، أنّ المسلمين يقاتلون عن إيمان ، وأن المشركين يقاتلون عن كفر ، يقول (١) :

ليسا سواءً وشتّى بين أمرهما ... حزبُ الإلهِ وأهل الشّرك والنُّصُبِ

---

(١) ديوان كعب بن مالك الأنصاري ، ص : ١٧٥ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ويختم قصيدته المنصفة الثانية بقوله[١] :

فخانوا وقد أعطوا يداً وتخاذلوا أبى الله إلاّ أمره وهو أصنعُ

وتأخذ المنصفات الإسلامية طابع الإعلام الذي يرفع من معنويات الناس، والدليل على ذلك أنّ كعبا بدأ منصفته البائية بقوله[٢] :

سائل قريشا غداة السفح من أُحُد ماذا لقينا وما لاقَوْا من الهَرَبِ

وبدأ منصفته العينيّة بقوله[٣] :

ألا هل أتى غسّان عنّا ودونهم من الأرض خَرْقٌ سيرهُ مُتَتَعْنِعُ

وكعب بن مالك إنّما ينصف المشركين ، لأن شخصيّته الاجتماعية متّزنة غير متهوّرة ، ولاتميل إلى بخس الناس حقّهم .

ومثل المنصفات الإسلامية المنصفات الأمويّة ، في مجاراتها للسياسة التي يتطلّبها العصر الأموي ، وذلك يفسّره ضعف روح الانصاف في القصائد المنصفات الأموية ، ولا أدلّ على ذلك من منصفة الأعْشى التغلبي ، التي يصف فيها المعركة التي جرت بين قبيلته تغلب ، وقيس عند تلّ الحشاك ، فيذكر كيف سار الفريقان وكلٌّ يريد الآخر ، فامتشقوا رماحهم ، واستلّوا سيوفهم ، ودارت بينهما معركة حامية ، ثبت الفريقان لها ، يقول[٤] :

ودَنَوْنا ودَنَوْا حتى إذا أمكنَ الطعنُ ومن شاء ضربْ
ركدتْ فينا وفيهم ساعةً سمهريّاتٌ وبِيضٌ كالشُّهُبْ
يسمع السامعُ مِنْ وَخْضِ القنا ومن الضربِ كتقضيبِ القَصَبْ
صابرونا فصبرنا لهمْ وكِلا الحيّين يجوي بحسَبْ

وهو إنصاف ضعيف خافت ، ما يلبث أنْ يعدل عنه ، عندما يذكر نفاد صبر أعدائه واستسلامهم ، ومصرع قائدهم[٥] :

نزلوا بالقاعِ لمّا كرهوا غمراتِ الموتِ واختاروا الهربْ
غادروا فينا عُمَيراً مُسْنَداً شائل الرِّجْلِ قتيلاً قد شَحَبْ

(١) ديوان كعب بن مالك الأنصاري ، ص: ٢٢٩ .
(٢) المصدر نفسه ، ص: ١٧٤ .
(٣) نفسه ، ص: ٢٢٢ .
(٤) المكاثرة عند المذاكرة ، ص: ١١ .
(٥) المصدر نفسه ، ص: ١١ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ويُفسِّر أيضاً مجاراةَ المنصفات الأُموية للسياسة شيوعُ لون المديح ، نجد ذلك واضحاً في منصفة كعب بن معدان ، التي يصف فيها وقائع الأزارقة مع المهلّب بن أبي صفرة ، فنراه يُفسِدُ علينا تلمُّسَنا روحَ الإنصاف في القصيدة بكثرة مديحه للمهلّب والأمويّين ، وفخره بقومه الأزد ، فبعد أن يكون آخِذاً في وصف حروبه معهم ، ينتقل فجأة إلى مدح المهلّب والفخر بقومه ، يقول (١) :

صَلْتُ الجبين طويلُ الباعِ ذو فَرَجٍ ... ضخمُ الدسيعةِ لا وانٍ ولا غُمُرُ
مجرَّبُ الحربِ ميمونٌ نقيبتُهُ ... لا يُستخفُّ ولا مِن رأيه البَطَرُ
وشيخنا حوله منّا ململمةٌ ... حيٌّ مِن الأزد فيما نابهم صُبُرُ
في كلّ يومِ تلاقي الأزد مفظعةٌ ... يشيبُ في ساعةٍ من هولها الشَعَرُ
والأزدُ قومي خيارُ الناس قد علموا ... إذا قُرومُهُمُ يوم الوغى خطروا
فيهم معاقلُ من عزٍّ يُلاذ بها ... يوماً إذا شمّرت حربٌ لها دِرَرُ
حيٌّ بأسيافهمْ يَبْغونَ مَجْدَهُمُ ... إنّ المكارمَ في المكروه تُبْتَدَرُ
لولا المهلّبُ للجيش الذي وردوا ... أنهار كِرْمانَ بعد الله ما صَدَروا
إنّا اعتصمْنا بحبل الله إذْ جَحَدوا ... بالمُحْكماتِ ولم نكفرْ كما كَفَروا
جاروا عن القصد والإسلام واتّبعوا ... ديناً يُخالفُ ما جاءت به النُّذُرُ

على أنّ هناك قسماً من هذه المنصفات الأمويّة ، نجد فيه الإنصاف صادقاً حارّاً ، وأعني به شعر الخوارج ، فإنّ هذا الشاعر الخارجيّ مجهول الاسم ، لم يجد ضيراً في إنصاف خصومه الأمويّين الذين مني بهم ، على رأسهم المهلّب بن أبي صفرة ، ومع إخلاصه الشديد لمذهبه ، وحزنه على أميره نافع بن الأزرق ، نجده يشهد له بالتفوق والخبرة الحربيّة والشجاعة التي اكتسبها من الحروب ، ويسجّل له ذلك في قوله (٢) :

ولئن مُنينا بالمهلّب إنّهُ ... لأخو الحروب وليثُ أهل المشرقِ
ولعلّه يَشْجَى بنا ولعلّنا ... نَشْجَى به في كلّ ما قد نلتقي
بالسُّمْرِ تختطف النفوسَ ذوابلاً ... وبكلّ أبيضَ صارمٍ ذي رونقِ
فيذيقنا في حربنا ونذيقُه ... كلٌّ مقالتَهُ لصاحبه : ذُقِ

---

(١) تاريخ الطبري ، ٦/ ٣٠٦ — ٣٠٨ .
(٢) ديوان شعر الخوارج ، ص : ٨٤ ، ٨٥ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وذلك قطريّ بن الفجاءة المازني ، يعترف بفراره أمام خصمه المغيرة بن المهلّب ، وأنه ما مِنْ فارس يتسمّى له الشاعر ، دون أن يُطأطئ رأسه سوى المغيرة ، وذلك لِما عرف عنه من شجاعة في الحروب ، يقول (١) :

فولّيتُ عنه خوف عودة جُرزه ... وولّى كما ولّيتُ يخشى الدّهارِسَا

فقلت بلى ما مِنْ إذا قيل : مَنْ لهُ ... تَسَمّ له ، لم أَغْضُضِ الطرْفَ ناكِسَا

فتى لا يزال الدهرَ سنّةَ رُمْحِهِ ... إذا قيل هل مِنْ فارسٍ أن يُداعِسا

إن إنصافه للمغيرة ، نابعٌ من إيمانه العميق بالقضاء والقدر ، وزهده في الحياة ، وتسليمه بأن الحرب بلاءٌ للمؤمنين الصابرين ، وأنّ الأيام دول بين الناس ، ولذلك كله نراه يعترف ببطولة خصمه ، ويقدّر شجاعته تقديرا كبيرا .

(١) ديوان شعر الخوارج ، ص ١٣١ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

السمات الفنّية للمنصفات :

إنّ القصائد المنصفات بمجموعها ظاهرة أدبيّة متميّزة في الشعر العربي خاصة إذا ذكرنا فنّي الهجاء والفخر. ففي الهجاء والفخر يظهر الاعتداد بالنفس، وتعظيم المناقب لقوم الشاعر، وتضخيم المثالب لخصومه، والبعد عن الإنصاف والنزاهة غالبا .

والإنصاف تيّار نفسيّ درج عليه عدد قليل من الشعراء، ويبدو أنّ هذا العدد القليل من الشعراء لم يكن يُحبّر شعره أو يصنعه، فجاء هذا الشعر عفو الخاطر والارتجال، ولذلك فإنّ هذه القصائد لا تشكّل تيّاراً ضخما في التراث العربي من حيث العدد ومن حيث الوجهة الفنية، ولكنّه مع ذلك شعر أصيل .

ولو أمعنّا النظر في هذه القصائد، ألفينا أنّ شعراءها لم يتناولوا القضايا التي طرحوها بمعمار فني واسع، ذلك المعمار الذي نجده عند فحول الشعراء الجاهليّين والمخضرمين، كعبد يغوث بن وقّاص الحارثي، وعبدة بن الطبيب، وعلقمة الفحل وغيرهم، ولا نجد فيها التعبير الفنيّ الذي نجده عند أولئك من خيال خصب وغيره، ولكنهم تناولوها بشكل بسيطه ممّا يدلّ على عدم عنايتهم بالصنعة الفنّية .

فالمفضّل النكري مثلا رسم قوّة الجماعتين رسماً قريباً، وقد جاءت قصيدته عفو الخاطر وأقرب إلى التعبير الحياتي غير المصنوع، فكأنّه يشير إلى القارئ بأنّه ينبغي عليه أن يقدّر الخصوم، وكذلك فعل عبد الشارق الجهني في منصفته .

١ . المقدّمة الفنّية :

لو تناولنا البناء الفني للقصائد المنصفات، فإنّنا نلاحظ عدم عناية شعرائها بالمقدّمة الطلليّة والغزلية، ومع أنّنا وجدنا مقدّمات فنية لبعض القصائد المنصفات، إلاّ أنّ تلك المقدّمات لم تقصد لذاتها، فقد اكتفى عبد الشارق الجُهَني ببيت واحد من الغزل قدّم فيه لقصيدته، ثم انتقل بعده إلى الموضوع المباشر للقصيدة، وذلك قوله [١] :

ألا حُيِّيتِ عنّا يا رُدَيْنا   نُحيّيها وان كرمت علينا

---

(١) شرح ديوان الحماسة، المرزوقي، ص : ٤٤٢ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ومهما يكن من أمر ، فإنّ ما بين أيدينا يُرينا ورود مقدّمات فنّية للقصائد المنصفات ، إلاّ أنّ ظروف المعارك التي قيلت فيها هذه القصائد ، وما تتّسم به من مفاجآت وتسارع في الأحداث ، لم تمكّن الشاعر من الالتفات إلى التزويق الفني ، ولم تسمح له بالاعتناء بالمقدمة الطللية والغزلية عناية فائقة .

٢ . الألفاظ والمعاني :

لا نستطيع أنْ ننكر صعوبة ألفاظ القصائد المنصفات خاصّةً أنها اختزنت معجماً واسعاً من معاجم الألفاظ الحربيّة ، إذْ أنّ قدرا كبيرا من هذه الألفاظ متّصل بأدوات الحرب من السيوف والرماح والدروع وغيرها . كما كان للأعلام والمواقع نصيب كبير من هذه الألفاظ ، فهي فخمة جزلة رصينة معبّرة عن معاني القوة والشّدة .

فمنصفة المفضّل النكري مليئة بالألفاظ الحربيّة وأسماء الأعلام والمواقع ، فقد أكثر الشاعر منها لدرجةٍ جعلت أبيات قصيدته مُلْغِزةً غير واضحة ، ومن الأمثلة على ذلك أبياتُه التي يذكر فيها أدوات الحرب المستخدمة في المعركة ، إذْ يصف قوّة أسلحة قومه وأثرها في أعدائهم (١) :—

وبَسْلٌ أنْ ترى فيهم كميّاً	كبا ليديهِ إلاّ فيه فُوقُ
يهزهزُ صعدةً جرداءَ فيها	سِنانُ الموتِ أو قَرْنٌ محيقُ
وَجَدْنا السِّدْرَ خوّاراً ضعيفاً	وكان النبعُ منبِتُهُ وثيقُ
وجاوزنا المنونَ بغير نِكْسٍ	وخاظي الجِلْزِ ثَعْلَبُهُ دَميقُ

فالفُوق: هو مشقّ رأس السهم ، حيث يقع الوتر . والصعدة : هي القناة المستوية . والمحيق : هو المدلوك المُحدَّد . والسدر والنبع : نباتان تُتّخذ منهما القِسيّ والسهام . والجلز: هو أصل السهام ومعظمه . والخاظي : الغليظ الصلب . والثعلب : ما دخل في جبّة السنان من الرمح . والدميق : المدخل .

ومن المواقع الحربية التي ذكرها الشاعر في سياق وصفه لمجريات المعركة ووقائعها "بطن أثال" و "غيبة ذي طريف" و "ذي الطرفاء" ، يقول (٢) :—

(١) الأصمعيات ، ص: ٢٠١-٢٠٢ .
(٢) المصدر نفسه ، ص : ٢٠٠-٢٠٢ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

فإنك لو رأيتَ غداة جئنـــا ببطن أُثالَ ضاحيةً تَسَـــوقُ
تلاقَيْنا بغيبة ذي طُرَيْـــفٍ وبَعْضهُمُ على بعضٍ حنيـــقُ
وكم من سيّدٍ منّا ومنهـــمْ بذي الطّرفاءِ منطقهُ شهيـــقُ

ويورد العباس بن مرداس في منصفته أسماء بعض أدوات الحرب التي دار القتال بهـا بين قومه بني سليم وخصومهم بني مراد ؛ وهي الخيول القوية السريعة ، والرماح الغليظـة الشديدة ، والمنسوب بعضها إلى خط البحريـــن (١) :

إذا ما شَدَدْنا شدّةً نَصَبُوا لهـا صُدورَ المذاكي والرّماح المداعسا
فأُبنا وأبقى طَعْنُنَا مِنْ رماحِنـا مطارِدَ خَطّيٍّ وحُمْراً مَداعِسـا
ومُجُوداً كأنّ الأُشْدَ فوق متونهـا من القوم مرؤوسـا وآخر رائِسـا

ويذكر العباس أيضا أسماء بعض فرسان قومه الذين شاركوا معه في القتال وأبلـوا بلاء حسنا ، وقد شهدوا شجاعته وبسالته في أرض المعركة ، يقـــول (٢) :

فكان شهودي مَعْبَدٌ ومخـــارِقٌ وبشرٌ وما استشهدْتُ إلا الأكايِسـا
معي ابنا صُرَيْمٍ دارعانِ كِلاهُمـا وعروةُ ، لولاهمْ لَقِيتُ الدّهارِسـا
ومارس زيدٌ ثمّ أقصرَ مُهْـــرُهُ وحُقَّ له في مثلها أنْ يُمارِسـا
وقُرّةُ يحميهم إذا ما تبـــدّدوا ويطعنهم شَزْراً فأبْرَحْتَ فارِسـا

ويحشد خداش بن زهير أربع صفات للخيل التي حملت فرسان قبيلته إلى أرض المعركـة ، وهي أنّها ناحلة ضامرة من كثرة الجوي ، عابسة ، طويلة الظهر والعنق ، وتتّخذ من الغبـار درعا تتستّر به ، يقـــول (٣) :

جلبنا الخيل ساهمةً إليهـــم عَوابِسَ يَدَّرِعْنَ النَّقْـعَ قُـــودا

على أنّ بين القصائد المنصفات تفاوتاً واضحاً ، فإنّها ليست جميعها في مستوى واحد من حيث قوّة الألفاظ وجزالتها ، بل إنّ بعضها ترقّ ألفاظها وتتوضّح معانيها ، وبعضهـا تغلظ ألفاظها وتصعب معانيها . وذلك راجع إلى قدرة الشعراء الفرسان على اختيار الألفاظ ،

(١) الأصمعيـــات ، ص: ٢٠٦ ، ٢٠٧ .
(٢) المصدر نفســه ، ص: ٢٠٦ .
(٣) الأغانـــي ، ٢٢ / ٧٠ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

والتعبير فيها عن المعاني والصور التي يعرضونها أكثر من غيرهم ، ممّن لم يشاركوا في المعارك، فاكتفوا بما روي لهم عنها .

ومع هذا التفاوت في قوة ألفاظها ، فإننا نجد معانيها سهلة واضحة ، إذ كان همّ الشعراء التعبير الصادق عما يجيش في صدورهم ، ولم يلتفتوا إلى الصنعة اللفظية ، وكان واقع المعركة يُملي عليهم التعبير السريع عن أحداثها ، كذلك لم يلتفتوا إلى المحسّنات البديعية ، إلاّ قليلا عند بعض الشعراء الذين كانوا يستخدمون الطباق والالتفات .

فمن أمثلة الطباق التي استخدمها شعراء المنصفات قول المفضّل النكري ، وكان فيه غير متصنّع ولا متكلّف ، فجاء سهلا جميلا [(١)] :

وجدنا السِّدْرَ خَوّاراً ضعيفاً   وكان النبعُ مَنْبِتُه وثيقُ

فخوّار ، ووثيق بينهما طباق .

وقوله [(٢)] :

وهم دفعوا المنيّة فاستقلّت   دِراكاً بعدما كادتْ تَحيقُ

فاستقلّت ، وتحيق بينهما طباق .

ومن أمثلة الطباق قول العباس بن مرداس [(٣)] :

تضوّعَ منها المِسْكُ حتى كأنّما   ترجّلُ بالرَّيحانِ رَطْباً ويابِسا

فرطبا ، ويابسا بينهما طباق .

وقوله أيضا [(٤)] :

وجُرْداً كأنّ الأُسْدَ فوق مُتونِها   من القوم مرؤوساً وآخر رائسا

فمرؤوسا ، ورائسا بينهما طباق .

ومن أمثلة الالتفات قول عبد الشارق الجهني [(٥)] :

---

(١) الأصمعيّات ، ص : ٢٠١ .
(٢) المصدر نفسه ، ص : ٢٠٠ .
(٣) المصدر نفسه ، ص : ٢٠٥ .
(٤) المصدر نفسه ، ص : ٢٠٧ .
(٥) شرح ديوان الحماسة ، المرزوقي ، ص : ٤٤٢ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ألا حُيِّيتِ عنّا يا رُدَيْنـــا نُحيِّيها وإنْ كَرُمَتْ عَلَيْنـــا

فنلاحظ استخدام الشاعر للالتفات في قوله (نُحيِّيها وان كرمت علينا) ، إذْ انصرف عن مخاطبة ردينة في الشطر الأول إلى الإخبار في الشطر الثاني ، فبعد أنْ دعا لها بالتحية رجع والتفت إلى هذا المعنى ففصّل فيه وشرحـــه .

ويلاحظ تصدير مطالع بعض هذه القصائد بالاستفهام التقريري ، ممّا توارد الشعـراء الجاهليّون على استعماله من الأساليب المعروفة في الشعر القديم ، واستفتاحهم كذلك بلفظة (ألا) ، فقد صدّر المفضّل النكري مطلع منصفته بلفظة (ألم تر) ، وذلك قولـــه (١) :

ألم تر أنّ جيرتنا استقلّـــوا فنيّتنا ونيّتهم فريـــــق

وصدّر عبد الشارق الجهني مطلع منصفته بلفظة (ألا) ، وذلك قولـه (٢) :

ألا حيّيت عنّا يا ردينـــا نُحيِّيها وإنْ كرمت علينـــا

وصدّر كعب بن مالك الأنصاري مطلع منصفته البائية بلفظة (سائل) ، وذلـــك قولـــــه (٣) :

سائِلْ قُرَيْشاً غداة السّفح من أُحُــدٍ ماذا لقينا وما لاقَوْا من الهـــرب

وصدّر أيضا مطلع منصفته العينيّة بلفظـة (ألا) ، وذلك قولـــــه (٤) :

ألا هل أتى غسّان عنّا ودونهـــم من الأرض خَرْقٌ سَيْرُهُ مُتَنَعْنِـــعُ

وأسلوب الابتداء بـ (ألا) معروف في الشعر الجاهلي ، فقد ابتدأ بذلك بشر بـــن أبي خازم في غيـــر قصيدة ، وعبد الشارق ، وعارِق الطائي ، وسعية بن العريض وغيرهـــم (٥) .

كما يلاحظ استخدام ضمير الجماعة ، وقلّ أن يستخدم الشاعر ضمير المفرد ، عـــدا الذين كانوا يذهبون مذهب الفخر . وضمير الجماعة كان لونا شعريًّا واضحاً ، ممّا يشعر بالـروح

---

(١) الأصمعيـــات ، ص : ٢٠٠ .
(٢) شرح ديوان الحماسة ، المرزوقـــي ، ص : ٤٤٢ .
(٣) ديوان كعب بن مالك الأنصـــارى ، ص: ١٧٤ .
(٤) المصدر نفســـه ، ص : ٢٢٢ .
(٥) المصدر نفســـه ، ص: ١٢٧ ، ١٢٨ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

العالية المنبعثة من إحساس الشاعر باندغامه في قبيلته أو جماعته ، فإنّ ألفاظا مثل جئنا ، تلاقينا مشينا ، رمينا ، لقينا ، وغيرها ، نراها تتكرّر في القصائد المنصفات .

٣ . الصورة الشعرية :

حرص شعراء المنصفات على تصوير المعارك التي جرت بين قومهم وخصومهم تصويراً واقعيّا بسيطاً ، فجاءت صورهم صادقة ، واقعية ، بسيطة ، بعيدة عن المبالغة والغلوّ والإسراف. ولمّا كانت هذه القصائد تدور حول الحرب ، والحرب عندهم وقائع يسجّلها الشاعر بصدق وواقعية ، فقد اتّسمت بالصدق الفنّي كما اتّسمت بالصدق الموضوعي .

وإنّ أكثر الصور الشعرية استعمالاً هي التشبيه ، لأنّ التشبيه لا يحتاج من الشاعر دقّة في التفكير ، ولا بعدا في الخيال ، ولا عمقا في التصوير ، وهو لون مفرد ، بل هو صبغ من أصباغ لون مفرد ، هو لون التصوير (١) . ولا يعني هذا ، أنّ جميع القصائد المنصفات في مستوى فنّي واحد ، بل إنّ منها ما يرتفع ، ومنها ما يهبط ، وذلك لأنّ قدرات الشعراء في الوصف والتصوير متفاوتة ؛ فمنهم من تسعفه ذاكرته في التحليق عاليا بخياله ، ومنهم من يظلّ سطحيّا في تصويراته .

وصورهم الشعرية مادّية ، مألوفة ، مستقاة من البيئة العربية الجاهلية ، ومستمدّة من العالم المحسوس والواقع المعاش . وكان الشعراء يتناولون فيها فرسان الفريقين كليهما ، فيصفون قدراتهم وشجاعتهم في المعركة ، وكان لهم أوفر النصيب من هذه الصور . ومن الأمثلة على ذلك قول المفضّل النكري يصف فارسا قتيلا من فرسان خصومه ، يشبّهه عندما سقط في أرض المعركة بالعرجون القديم (٢) :

قتلنا الحارث الوضّاح منهمْ فخرّ كأنّ لِمّتهُ العُذوقُ

ونراه يشبّه خصومه بالسحاب كثير البرد ، الذي يعترض أفق السماء ، وقومه بالسيل الذي ملأ الوادي وفاض على جانبيه ، وذلك في قوله (٣) :

---

(١) انظر: الفن ومذاهبه في الشعر العربي ، تأليف الدكتور شوقي ضيف ، دار المعارف بمصر ، القاهرة ، الطبعة التاسعة ، ١٩٧٦ ، الصفحات: ٢٣٠ ، ٢٣١ ، ٢٤٤ ، ٢٤٥ ، ٢٤٦ ، ٢٤٧ .

(٢) الأصمعيات ، ص : ٢٠٢ .

(٣) المصدر نفسه ، ص: ٢٠١ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

فجاؤوا عارِضًا بَرِداً وجِئْنــا   كسيلِ العِرْضِ ضاقَ به الطريــقُ

ويشبّه عبد الشارق الجُهَنيّ خصومه أيضا بالسحاب كثير البرد في الانتشار في الأفق ، مع شدّة الرمي وتتابعه ، وقومه بالسيل في التدفّق والسير بسرعة ، مع الاندفاع الشديد والإتيان على كلّ ما في طريقه ، بجامع القوّة والكثرة في كلّ منهما ، وذلك في قوله (١) :

فجاؤوا عارضا بَرِداً وجئنــا   كمِثْلِ السّيل نركبُ وازِعَيْنــا

ويشبّه أيضاً قومه وخصومه ، بسيلٍ جامح لا يُبقي وَيكْتَسِح ما يجد أمامه ، وذلك في قولــه (٢) :

فَمَنْ يرنا يقل سَيْل أتِــيٌّ   تَكُرُّ عليهمُ وهمُ عَلَيْنــا

ويشبّه خِداش بن زهير العامري خصومه أيضا بالسحاب كثير البرد ، وقومه بالنار المضطرمة في الغــاب ، فيقــول (٣) :

فجاؤوا عارِضاً بَرِداً وجئنــا   كما أضْرَمْتَ في الغاب الوقــودا

وهكذا تتكرّر صورة السحاب والسيل غير مرّةٍ في قصائدهــم .

ويشبّه كعب بن مالك الأنصاري خيار القوم من المشركين وقد ضربهم المسلمــون يوم أحد ، بالخشب المطروح على الأرض ، فيقــول (٤) :

ضَرَبْناهُمُ حتى تركنا سراتَهُــمْ   كأنّهمْ بالقاعِ خُشْبٌ مُصَــرَّعُ

واستمدّ من السّحاب المفرغ من المطر صورة ، فشبّه بها المشركين في هروبهم أمــام المسلمين وسرعتهم في ذلك ، بالسّحاب الذي أدرّتْ ماءه الريح ، فخفّ حِمْله وانكشف وأسـرع بعد أنْ كان بطيئاً ، يقــول (٥) :

وراحوا سِراعاً مُوجِفينَ كأنّهُــمْ   جَهامٌ هَرَاقَتْ ماءه الريحُ مُقْلِــعُ

---

(١) الأشباه والنظائــر ، ١/ ١٥٢ .
(٢) المصدر السابــق ، ١/ ١٥٣ .
(٣) الأغانــي ، ٢٢/ ٧١ .
(٤) ديوان كعب بن مالك الأنصــاري ، ص: ٢٢٦ .
(٥) المصدر نفســه ، ص : ٢٢٧ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وشبّه المسلمين في مشيهم بمشي الأُسود التي إذا شبعت من فرائسها صارت تمشي وفي سيرها عَجْزٌ كسير الأعرج ، وهذا من شدّة تنكيل المسلمين بهم ، يقول[١] :

ورُحْنا وأُخْرانا بِطاءٌ كأنّنا أُسودٌ على لحمٍ ببيشةَ ظُلَّعُ

وأخذ عن الشهاب صورة ، والنار مشهودة عند العرب ، توقد في كلّ حي ، وتضرم لكلّ ضيف ، ومن ذلك تشبيهه جماعة المسلمين بالشهاب ، لما لهم من ضُرٍّ في الأعداء[٢] :

وكنّا شِهاباً يتّقي الناسُ حَرَّهُ وَيَفْرُجُ عنه مَنْ يليهِ ويُسْفَعُ

ويصوّر كعب بن معدان الأشقري الأعداء ، فيشبّههم في اشتدادهم وهيجانهم في الحرب بالجن ، وذلك في قوله[٣] :

نَلْقَى مساعيرَ أبطالاً كأنّهمُ جِنٌّ نُقارِعُهُمْ ما مثلهمْ بَشَرُ

وشبّه سير المسلمين إلى أعدائهم ، بالموج في سرعته وشدّته ، وإتيانه على ما في طريقه ، وذلك في قوله[٤] :

سِرْنا إليهم بمثل الموج وازدلفوا وقبل ذلك كانت بيننا مِئَرُ

وشبّه سير الفريقين بمشي المطايا القويّة ، تهديها زمر من الجنود ، يقول[٥] :

يمشون في البيض والأبدان إذْ وَرَدُوا مشي الزّوامل تهدي صفّهمْ زُمَرُ

ووصف لُبوس جيشه وسلاحه والتحامه بالعِدى وصفا ، استعان على تجسيمه بالإحاطة ، وتتابع الصور ، فقد وصف الصفّين ، فشبّههما بالطودين ، مما يُحَسُّ بالحسّ ، ويُجَسَّم بالذهن ، وجعل البرق تشبيها للمعان السيوف بينهما[٦] ، وذلك في قوله[٧] :

صفّانِ بالقاع كالطَّوْدَيْنِ بينهما كالبرقِ يلمعُ حتى يشخصَ البَصَرُ

---

(١) ديوان كعب بن مالك الأنصاري ، ص: ٢٢٧ .
(٢) المصدر نفسه ، ص: ١٣٣ .
(٣) تاريخ الطبري ، ٦/ ٣٠٦ .
(٤) المصدر السابق ، ٦/ ٣٠٧ .
(٥) المصدر السابق ، ٦/ ٣٠٧ .
(٦) انظر: شعر الحرب في أدب العرب ، زكي المحاسني ، ص: ٩٩ .
(٧) تاريخ الطبري ، ٦/ ٣٠٧ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وصوّر شعراء المنصفات كذلك الخيل التي حملت فرسانهم إلى أرض المعركة ، بأنّها عابسة ، ناحلة ضامرة من كثرة الجري ، طويلة الظهر والعنق ، تتّخذ من الغبار درعاً تتستر به ، فصفة عبوس الخيل نجدها في قول العباس السّلمي (١) :

إذا الخيل جالتْ عن صَريعٍ نُكِرُّها   عليهمْ فما يَرْجِعْنَ إلاّ عَوابِسا

وفي قول خداش بن زهير (٢) :

جَلَبْنا الخيل ساهمةً إليهمْ   عوابسَ يَدَّرِعْنَ النَّقْعَ قُودا

ويشبِّه كعب بن مالك الخيول في سرعتها بالجراد الذي تثيره الرياح الشرقية الباردة ، فيصير يجيء ويذهب ، وذلك في قوله (٣) :

وخيلٌ تراها بالفَضاء كأنَّها   جَرادُ صباً في قَرَّةٍ يَتَرَيَّعُ

واستخدموا كذلك الاستعارة ، وكانت استعارات قريبة حسنة ، لتوضيح الصور وإخراجها إخراجاً جميلا تقبله النفوس . ولكنْ لِما أنّ الاستعارة تحتاج إلى أناة وجُهْد ، وتتطلّب من صاحبها الدّقة في الفكر ، والجهد في الصياغة . والاستعارة تعتمد على ما في الكلمة من حَمْلٍ أو خِصْبٍ كامن (٤) . ولِما أنّ هذا الشعر يتطلّب من صاحبه الإيجاز في تسجيل الأحداث لتلاحقها وتتابعها ، فإننا نراها قليلة الاستعمال عند شعراء المنصفات ، ومن الأمثلة عليها قول المفضل النّكري (٥) :

وهمْ دفعوا المنيّة فاستقلّتْ   دِراكاً بعدما كادتْ تَحيقُ

فقوله : "دفعوا المنيّة" و "استقلّتْ" استعارتان مكنيّتان ، إذْ شبّه المنيّة برجل يُدْفَع ويَرْتَحِل .

وقوله (٦) :

وجاوَزْنا المَنُونَ بغيرِ نِكْسٍ   وخاظي الجِلْزِ تَعْلَبُهُ دَمِيقُ

فالمَنون لا يُتَجاوز ، وإنما شبّهه بشيء يُتجاوز على سبيل الاستعارة المكنيّة .

ومن الاستعارات قريبة المأخذ قول خداش بن زهير (٧) :

بأنّا يوم شمطةَ قد أقمْنا   عمودَ المجد إنّ له عمودا

---

(١) الأصمعيّات ، ص: ٢٠٦ .
(٢) الأغاني ، ٢٢ / ٧٠ .
(٣) ديوان كعب بن مالك الأنصاري ، ص: ٢٢٦ .
(٤) انظر: الصورة الأدبية ، الدكتور مصطفى ناصف ، مكتبة مصر ، القاهرة ، ١٩٥٨ ، ص: ١٢٥ . والشعر وأيام العرب في العصر الجاهلي ، ص : ٣٤٩ .
(٥) الأصمعيّات ، ص: ٢٠٠ .
(٦) المصدر السابق ، ص: ٢٠٢ .
(٧) الأغاني ، ٢٢ / ٧٠ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

فقوله : "عمود المجد" استعارة مكنية ، إذ شبّه المجد ببناء عالٍ له عمود ، وحذف المشبـــه به ، وأبقى شيئا من لوازمه . وفي قوله "إنّ له عمـــودا" التفـــات .

ومن الأمثلة على الاستعارة قول كعب بن مالـــك (١) :

ودارت رَحانـــا واستدارتْ رحاهـــمُ وقد جعلوا كلٌّ من الشرِّ يَشْبَـــعُ

فقد شبّه الشرّ بشخص فاغرٍ فاه يبتلع الناس ، ثم حذف المشبه به ، وأبقى شيئا من لوازمه علـــى سبيل الاستعارة المكنيـــة .

وقول كعب بن معـــدان (٢) :

بِدَشْتِ بارِينَ يوم الشِّعْب إذْ لُحِقَتْ أُسْدٌ بسفك دماء الناس قد زَئِـــروا

شبّه الأعداء وهم يسفكون دماء المسلمين ، بالأسود المتعطشة التي تزأر ، فحذف المشبّه ، وصرّح بالمشبه به على سبيل الاستعارة المكنّيـــة .

وقولـــه (٣) :

تأتي علينا حَزازاتُ النفوس فمـــا نُبْقي عليهم وما يبقون إنْ قَـــدَروا

فقد شخّص الأحزان والآلام ، وشبّهـها بشخص له القدرة على المجيء ، وحذف المشبه به ، وأبقـى شيئا من لوازمه على سبيل الاستعارة المكنّيـــة .

واستخدم شعراء المنصفات الكناية بكثرة ، لتعميق أفكارهم ، وجعل تعبيراتهـــم أقوى أثرا ، وصورهم أعمق إيحاء وأكثر روعة ، ولمّا كانت المنصفات تتطلّب إيجازاً في القـــول ، وسرعةً في الوصف ، فإنّها تنسجم مع هذا الضرب البياني الذي يتّسم بالإيجـــاز .

ومن الأمثلة على ذلك قول المفضّل النكـــري (٤) :

تَرَكْنا العُرْجَ عاكفةً عليهـــمْ وللغِربانِ مِنْ شِبَعٍ نَغِيـــقُ

فيـه كناية عن كثرة القتلـى ، حتى عبثت بها الضباع ، ونَعِقَت الغربـان ، لما نالها مـــن الشبـــع .

---

(١) ديوان كعب بن مالك الأنصـــاري ص: ٢٢٧ .
(٢) تاريخ الطبـــري ، ٦/ ٣٠٦ .
(٣) المصدر السابـــق ، ٦/ ٣٠٧ .
(٤) الأصمعيـــات ، ص : ٢٠٢ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وقولـــــــه (١) :

يُجاوِبْنَ النِّياحَ بكلِّ فَجْـــرٍ　　فقد صَحِلَتْ من النَّوْحِ الحُلـــوقُ

فيه كناية عن عِظَم الحدث وفظاعته ، لدرجة أنّ حلوق نساء الأعداء قد جُفّت ، وأصواتهنّ قد بُحّت ، من كثرة النواح والنّحيب على القتلــــى .

وقولـــــــه (٢) :

وقد قتلوا به مِنّا غُلامـــاً　　كريماً لم تُؤَشَّبْهُ العُـــروقُ

فقوله "لم تؤشبه العروق" كناية عن كرم أخلاق الفارس وصفاء نسبـه .

ومن الكنايات الجيّدة البليغة قول العبّاس بن مِــرداس (٣) :

فَبِتْنا قُعوداً في الحديد وأصبحوا　　على الرُّكُباتِ يَحْرُدونَ الأنافِيَســا

فيه كناية عن استعداد قومه الكامل وتأهّبهم للحرب ، وسرعة مباغتتهم للأعداء ، وغَفْلَة أعدائهم ، وعدم ترقّبهم للهجـــــوم .

وقولـــــــه (٤) :

ولومات منهمْ مَنْ جَرَحْنا لأصبحتْ　　ضِباعٌ بأكنافِ الأراكِ عَرائِســـا

فيه كناية عن كثرة الجرحى الذين أصيبوا في المعركة ، ولو ماتوا لفرحت بهم الضبـــاع .

وقولـــــــه (٥) :

ولكنّهمْ في الفارسيِّ فلا تـــرى　　من القومِ إلاّ في المَضاعفِ لابِســا

فيه كناية عن تحصينهم واستعدادهم للحـــــرب .

وقولـــــــه (٦) :

وكُنّا إذا ما الحربُ شُبَّتْ نَشُبُّهـــا　　ونضربُ فيها الأبلَخَ المُتقاعِســـا

(١) الأصمعيـــات ، ص: ٢٠٢ .
(٢) المصدر السابـــق ، ص: ٢٠٣ .
(٣) المصدر السابـــق ، ص: ٢٠٥ .
(٤) المصدر السابـــق ، ص: ٢٠٦ .
(٥) المصدر السابـــق ، ص: ٢٠٦ .
(٦) المصدر السابـــق ، ص: ٢٠٧ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

فالشطر الثاني كناية عن الرفعة والأنفة والكبرياء ، وعدم قبول الدنيّات .

ومن الكنايات قول كعب بن معدان الأشقري[1] :

وبادَ كلُّ سلاحٍ يُستعانُ بهِ ... في حومة الموت إلا الصارِمُ الذَّكَرُ

فالبيت كناية عن شدّة الهول في تجسيم الضّنك[2] .

وقوله[3] :

ندوسهمْ بعناجيجٍ مجفّفةٍ ... وبيننا ثَمَّ مِنْ صُمِّ القنا كِسَرُ

كناية عن تحطّم العدوّ وهزيمته[4] .

وثمّة أمر آخر ينبغي الإشارة اليه ، وهو خلوّ القصائد المنصفات — باعتبارها إحدى مجموعات شعر الحرب — من الروح القصصيّة . فقد كان شعراؤها في غالبيّتهم من الفرسان الذين تمرّسوا بفنون الحرب ، وقد أكسبهم هذا التمرس وطول مشاهدتهم للمعارك دقّةً في وصف المعارك ، فكانوا يصفون لنا تلك المعارك التي كانوا يخوضونها وصفاً دقيقاً ، يمتلىء حيوية ، ويتّسم بالواقعية ، فهو صوت شاعر عاش أحداث تلك الحرب ، وخاض غمراتها . والحرب كرٌّ وفرٌّ ، وضرب وسقوط فرسان ، وبريق سيوف ، وغبار يحجب الأبصار ، كل مشاهدها حركة ، ولا بدّ أن يدخل هذا في اعتبار الشاعر ، عندما يشرع في وصف المعارك ، وأن يختار من الألفاظ والأوزان ، ما يساعده في تجسيم الصورة ، بحيث تبدو كأنها تنبض حركة وحيويّة ، وتأثيراً في نفوس السامعين ، ليحقّق الغرض الذى يهدف اليه[5] .

وقد ربط الدكتور شوقي ضيف بين تلك الحركة التي تميّز بها شعر المعارك ، وبين القصصيّة ، وبين ميل الشعراء إلى السرعة والإيجاز ، يقول[6] : "إنّ تلك الحركة قد أتاحت لشعرهم ضرباً من الروح القصصية ، ولكنّ هذه الروح لم تتّسع عندهم ؛ لأنّ حركتهم وميلهم إلى السرعة والايجاز ، أضعف تلك الروح القصصية ، ولم تتّسع عندهم . وبذلك لم يظهر عندهم ضرب من ضروب الشعر القصصي" .

(١) تاريخ الطبري ، ٦/ ٣٠٧ .
(٢) انظر: شعر الحرب في أدب العرب ، ص: ٩٩ .
(٣) تاريخ الطبري ، ٦/ ٣٠٧ .
(٤) انظر: شعر الحرب في أدب العرب ، ص: ٩٩ .
(٥) انظر: الشعر وأيام العرب في العصر الجاهلي ، ص: ٣٨٧ .
(٦) انظر: العصر الجاهلي ، د . شوقي ضيف ، دار المعارف بمصر ، القاهرة ، ١٩٦٠ ، ص: ٢٢٥ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

٤٠ الأوزان :

يلاحظ أن المنصفات جاءت على أوزان خاصة بشعر الحرب ، وهي الطويل والوافر ، ذانك البحران اللذان يصلحان لأغراض الحرب ويناسبان جوّ المعارك . ولكن ذلك لا يعني أنّ جميع المنصفات قصائداً ومقطوعات تحمل درجة الانفعال والعاطفة نفسها ؛ فهناك ما قيل أثناء المعركة ، ويتطلّب هذا من الشاعر أن يُوقع قصيدته على وزن خاص يناسب جوّها العام ، ويخرج هذا الضرب سريع الحركة ، وهو البحر الوافر الذي "يلائم بإيقاعه السريع العاطفة الحادة المهتزّة "(١) .

ومنها ما قيل بعد أن هدأت النفوس والخواطر ، ويتطلّب هذا من الشاعر أن يتروّى في تسجيل وقائع المعركة ، إذْ أنّ هناك نُسخةً لاستذكارها واسترجاعها ثم تسجيلها ، فيأتي هذا الضرب بطيء الحركة ، وهو البحر الطويل الذي "يلائم بإيقاعه البطيء الهادئ وبمقاطعه الطويلة ، العاطفة المعتدلة الممتزجة بقدر من التفكير والتأمّل ، سواء أكانت حزناً هادئاً لا صُراخَ فيه ، أم سُروراً هادئا لا صخب فيه "(٢) . لذلك كلّه فقد تباينت أوزان البحور لتباين جوّ القصائد ومضامينها .

ويحتلّ البحر الطويل المرتبة الأولى في شعر الإنصاف قصائد ومقطوعات ، ويلاحظ أنّ منصفة العباس بن مرداس ومطلعها(٣) :

لأسماءَ رَسْمٌ أصبح اليوم دارِسَا ... وأقفر منها رَحْرَحانَ فَراكِسَا

ومنصفة كعب بن مالك ومطلعها(٤) :

ألا هَلْ أتى غسّانَ عنّا ودونهمْ ... من الأرضِ خَرْقٌ سَيْرُهُ مُتَعَسِّفُ

ومنصفة قطري بن الفجاءة ومطلعها(٥) :

لعمري لئن كانَ المَزوزنيّ فارسا ... لقد لقي القرم المزونيّ فارسا

---

(١) انظر: الشعر الجاهلي ، منهج في دراسته وتقويمه ، د . محمد النويهي ، الدار القومية للطباعة والنشر ، القاهرة ، ١٩٦٩ ، ١/ ٦١ .
(٢) انظر: المرجع نفسه ، ١/ ٦١ .
(٣) الاصمعيات ، ص: ٢٠٤ .
(٤) ديوان كعب بن مالك الأنصاري ، ص: ٢٢٢ .
(٥) ديوان شعر الخوارج ، ص : ١٣١ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ومنصفة العديل بن الفَرْخ العِجليّ ومطلعهـــا[١] :

ألا يا آسلمي ذاتَ الدماليجِ والعِقْدِ وذات الثنايا الغُرِّ والفاحمِ الجَعْـــدِ

يلاحظ أنّها جاءت على وزن البحر الطويل ، وأنّ جوّها يتّسم بالهدوء الذي يُمليـــه الوصف المتأنّي لأحداث المعركة ووقائعها بدقّة وإمعان نظر ، وتحمل طابع الفخـــر .

ويحتل البحر الوافر المرتبة الثانية ، ويلاحظ أنّ منصفة المفضّل النكري ومطلعها[٢] :

ألم تـرَ أنّ جيرتنا استقلّـــوا فنيّتُنا ونيّتُهـــمْ فَرِيـــــقُ

ومنصفة عبد الشارق الجهني ومطلعهـــا[٣] :

ألا حيّيت عنّا يا رُدَيْنـــا نُحيّيها وإنْ كَرُمَتْ عَلَيْنـــا

ومنصفة خداش بن زهير ومطلعهـــا[٤] :

فأبلغ إنْ عَرَضْتَ بهِ هِشامـــاً وعبدَ اللهِ أبلغْ والوليـــدا

ومنصفة عمرو بن برّاقة ومطلعهـــا[٥] :

عَرَفْتَ من الكثيبِ ببطنِ ضِيـــمٍ فجوّ بشائمٍ طللاً مُحيـــلا

يلاحظ أنّها قد جاءت على وزن البحر الوافر، وأنّ جوّها يتّسم بالحركة والحماســـة الثائـرة ، يمليها التعبير السريع عن وقائع المعركة وأحداثها المتلاحقة ، بما يتّفق مـــع نظام البحر الوافـــر .

---

(١) ديوان الحماسة لأبي تمّام ، مختصر التبريزي ، ١/ ٤٢٧ .
(٢) الأصمعيّات ، ص : ١٩٩ .
(٣) شرح ديوان الحماسة ، المرزوقي ، ص : ٤٤٢ .
(٤) الأغاني ، ٢٢/ ٧٠ .
(٥) قصائد جاهلية نادرة ، ص: ١٠٢ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الفصـــل الثالـــــث

* أبــــرز شعــــراء القصائــــد المنصفــــات *

- المفضّـل النّكــــري شاعر جاهلـــي
- العبّاس بن مرداس السّلمـــي شاعر مخضـــرم
- كعب بن معدان الأشقـــريّ شاعر أمـــويّ

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

اسمه ونسبه:

اختلف النسّابون والأدباء في اسمه ، فذكر ابن الكلبيّ أنّه[١] : "المفضّل الشاعر بن معشر بن أسحم بن عديّ بن شَيْبان بن سَود بن عُذرة بن مُنبِّه بن نُكْرَة ، الذي قال المنصفة " وإلى ذلك ذهب ابن دريد وابن حزم[٢] .

وذكر الخالديان أنّ اسمه عامر[٣] ، وأورده السيوطي كذلك ، فقال[٤] : "المفضّل النّكري من عبد القيس ، واسمه عامر بن مَعْشَر بن أسحم ، وإنما سُمّي مفضّلاً للقصيدة التي مطلعها :

أحقّاً أنّ جيرتنا استقلّوا فنيّتنا ونيّتُهمْ فريقُ

ويبدو أنّ المفضّل لقب له ، نصّ على ذلك ابن سلام إذْ يقول[٥] : "المفضّل بن معشر ابن أسحم بن عديّ بن شيبان بن سُوَيْد بن عُذْرَة بن مُنبِّه بن نُكرة ، فضّلته قصيدته التي يقال لها المنصفة " .

وعلّق المَيْمَني[٦] بأنّ البكري خلط بين "عامر بن أسحم بن عدي" ، وبين "المفضّل ابن معشر بن أسحم " ، فتحامل عليه ، ورماه بأنه قد خلط بين الرجلين تخليطاً قبيحاً . ويُفهم من التعقيب الوارد هنا ، أنّ له عمّا يُسمّى "عامر بن أسحم " ، تُنسَب إليه القصيدة[٧] .

---

(١) انظر: جمهرة النسب ، ابن الكلبيّ ، تحقيق محمود فردوس العظم ، دار اليقظة العربية للتأليف والترجمة والنشر ، دمشق ، ١٩٨٨ ، ١/ ٤٧ .

(٢) انظر: الاشتقاق ، ابن دريد ، جوتنجن ، ألمانيا ، ١٨٥٤م ، ص: ١٩٩. وجمهرة أنساب العرب ، ابن حزم الأندلسي ، تحقيق وتعليق عبد السلام هارون ، دار المعارف بمصر ، القاهرة ، ١٩٦٢ ، ص : ٢٩٩ .

(٣) انظر: الاشباه والنظائر ، الخالديان ، ١/ ١٤٩ .

(٤) انظر: شرح شواهد المغني ، السيوطي ، تحقيق محمد محمود بن التلاميذ التركزي الشنقيطي ، المطبعة البهية ، القاهرة ، ١٩٠٤م ، ص: ٦٢ .

(٥) انظر : طبقات فحول الشعراء ، ص: ٢٣٢، ٢٣٣ .

(٦) انظر: سمط اللآلي ، للوزير أبي عبيد البكري الأوْنبي ، نسخه وصححه وحقق ما فيه واستخرجه من بطون دواوين العلم عبد العزيز الميمني ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة ، ١٩٣٦ ، ص: ١٢٥ ، حا ٤ .

(٧) انظر: الأصمعيّات ، ص: ١٩٩ ، الحواشي .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

والصواب عندي : أنّ المفضّل هو نفسه عامرُ بن معشرَ بن أشْحَم ، كما قال البكري والسّيوطي ، وأنّه سُمّي مفضّلاً لهذه القصيدة كما صرّح بذلك الجُمَحي .

والمفضّل شاعر جاهليّ مغمور ، لا ندري متى عاش ومتى تُوفّي ! غير أنّ مؤرّخي الأدب لا يكادون يختلفون في أنّه جاهليّ ، وأنّ قصيدته المنصفة تلك قالها في حرب كانت بينهم في الجاهلية ، كما ذكر ابن دريد (١) .

وذكر ابن قتيبة أنّ قبيلته "نُكْرة" : هم خلفاء جذيمة ، وهم أهل البحرين ، وفيهم العدد والشرف (٢) ، وهو يتّصل بقرابة مع المثقّب العبديّ الشاعر الجاهلي المعروف في جدّه "نُكْرَة بن لُكَيْز" .

منزلته الشعريّة :

يعدّ المفضّل النُّكري شاعراً مقلّاً من شعراء الجاهليّة ، إذْ لم أعثر له على غير قصيدته المنصفة . وقد عدّه الجُمَحي من شعراء البحرين المعروفين ؛ وهم المثقّب العبدي والممزّق العبدي والمفضّل النكري ، ثم ذكر أنّ في البحرين شعراً كثيراً جيداً ، وفصاحة (٣) ، فشعر المفضّل ، مع قلّته ، يعدّ قوياً جزلاً رصيناً ، وهذا يجعل المفضّل متقدماً في مكانته بين شعراء عصره ، وإنْ كان قليل الشعر .

وقال المفضّل قصيدته المنصفة في حرب وقعت بين قومه وخصومهم في الجاهلية ، وقد صَدَّرها بالحنين إلى جيرته قوم سليمى الذين رحلوا وخلّوه لأحزانه وأشواقه ، وساق في ذلك وصفا لها ولحديثها (٤) :

ألمْ ترَ أنّ جيرتَنا استقلّوا … فنيّتُنا ونيّتُهُمْ فَرِيقُ
فدَمْعي لؤلؤٌ سَلِسٌ عُراهُ … يَخرّ على المهاوي ما يَلِيقُ
عدَتْ ما رُمْتَ إذْ شَحَطَتْ سُلَيْمى … وأنت لِذكْرِها طَرِبٌ مَشُوقُ
فودّعْها وإنْ كانت أناةٌ … مُبَتَّلةٌ لها خَلْقٌ أنِيقُ

(١) انظر : الاشتقاق ، ص : ١٩٩ .
(٢) انظر: المعارف ، ابن قتيبة ، حقّقه وقدّم له الدكتور ثروت عكاشة ، دار المعارف بمصر ، القاهرة ، الطبعة الرابعة ، ١٩٦٩ ، ص: ٩٣ .
(٣) انظر: طبقات فحول الشعراء ، ص: ٢٢٩ــ٢٣٢ .
(٤) الأصمعيات ، ص: ٢٠٠ ــ ٢٠٣ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

تُلهّي المرءَ بالحِدْثانِ لَهْــــواً   وتحدجه كما حُدِجَ المطيـــــقُ

ثمّ راح يذكر ما جرّته الحرب وقد أخذ القتل من قبيلته وقبيلتهم ، وشبعت السبـــاع من عشيرته وعشيرتهم ، وبكت نساؤه ونساؤهم ، وقد صرع منهم الحارث الوضاح ، أصابته رمـــاح بني حُييّ ، وهم قتلوا غلاما كريماً من قومه ، وتتوالى على هذا النمـــــط :

فألقَيْنا الرماحَ وكان ضربـــــاً   مقيلَ الهامِ كلٌّ ما يــــــذوقُ
وجاوزنا المنونَ بغيرِ نِكْـــسٍ   وخاطي الجِلْزِ ثعلبةُ دَميـــقُ
كأنّ هزيزنا يوم التقَيْنـــــا   هزيزُ أباءةٍ فيهـــا حريـــقُ
بكلّ قرارةٍ وبكـــلّ رَيــــعٍ   بنانُ فتىً وجُمْجُمَةٌ فَليـــقُ
وكم من سَيّدٍ منّـــا ومنهــــمْ   بذي الطّرْفاءِ منطِقُهُ شَهيـــقٌ
بكلّ مجالةٍ غـادَرْتُ خِرْقـــاً   من الفتيانِ مَبْسِمُهُ رقيـــقُ
فأشْبَعْنا السّباعَ وأشبعوهـــا   فراحت كلّها تَئِقٌ يَفُـــوقُ
تركنا العُرْجَ عاكفةً عليهــــمْ   وللغربانِ من شِبَعٍ نَغيـــقُ
فأبكيْنا نساءَهُمُ وأبكَـــوْا   نساءً ما يسوغُ لهنَّ ريـــقُ
يجاوِبْنَ النّياحَ بكلّ فَجْـــرٍ   فقد صَحِلَتْ من النّوْحِ الحُلـوقُ
قتلنا الحارثَ الوضاحَ منهــــمْ   فخرّ كأنّ لِمّتهُ العُـــذوقُ
أصابَتْهُ رماحُ بني حُيَـــيٍّ   فخرّ كأنّهُ سيـفٌ دَلـــوقُ
وقد قتلوا به منّا غُلامـــاً   كريماً لم تؤَشّبْهُ العـــروقُ

ولما بلغتْ الحرب مداها ، ونفدت كنانات الفرسان من السهام ، وكلّت أيديهم مـــن الطعن بالرماح والضرب بالسيوف ، وأيقن كلّ من الفريقين صبر الآخر وصموده ، كفّوا عن القتال ، وأطلقوا الأســـرى :

فلما استيقنوا بالصّبرِ منّـــا   تُذُكِّرت العشائرُ والحَزيـــقُ
فأبقَيْنا ولو شئنا تَرَكْنـــا   لُجَيْماً لا تقودُ ولا تســوقُ
وأنْعَمْنا وأبْأسنا عليهـــمْ   لنا في كُلِّ أبيـاتٍ طَليـــقُ

ولا نملك ما نحكم به على مستوى شعره الفني ، غير قصيدته المنصفة ، وإن تفضيله بهـا ، يدلّ أنه جوّد فيها ، حتى اشتهر على غيره من شعراء عصره ، وحسبها أنها جاءت أولـــى

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

المنصفات ، كما ذكر الرواة[١] .

وقصيدته هذه ، لا تختلف عن مثيلاتها من قصائد الشعر الجاهلي ، فألفاظها قويّة فخمة ، وتركيبها سليم ، وبناؤها قوي مُحْكَم ، لا يكاد الضعف يتخلّل اليها .

وكانت مجالا للاستشهاد اللغوي والنحوي ، فقد استشهد البكري[٢] بقوله :

فِداءٌ خالتي لبني حُيَيٍّ خصوصاً يوم كُسِّ القومِ روقُ

وذلك في بيان معنى "الأَكَسّ" وهو قصير الأسنان ، و "الأروق" ، وهو طويل الأسنان .

واستشهد السيوطي[٣] بقوله :

أحقّاً أنّ جيرتنا استقلّوا فنيّتُنا ونيّتُهم فريقُ

وذلك على جواز نصب (حق) على الظرفيّة ، والأصل فيها "أفي الحقّ استقلال جيرتنا" ، وقال المبرّد انتصاب حقّا على المصدريّة ، والتقدير "أحقّ حقّا" ، ثم أُنيبَ المصدر عن الفعل ، وارتفاع أنّ وما بعدها عنده على الفاعليّة ، واستشهد بالبيت نفسه ابن مالك ، على فتح أنّ بعد حقّا .

واستشهد كذلك ابن منظور بأبيات من المنصفة ، منها قوله :

وسائلةٍ بثعلبةَ بنِ سَيْرٍ وقد أودت بثعلبة العَلُوقُ

على أنّ الشاعر أراد بسير سيّار ـ وهو اسم رجل ـ ، فجعله سَيْراً للضرورة ، لأنه لا يمكنه سَيّار لأجل الوزن[٤] .

وقوله أيضا :

يُهَزْهِزُ صعدةً جرداءَ فيها سِنانُ الموتِ أو قَرْنٌ مَحِيقُ

---

(١) انظر: الأشباه والنظائر ، ١/ ١٤٩ .
(٢) انظر: سمط اللآلي ، ص : ١٢٥ .
(٣) انظر : شرح شواهد المغني ، ص: ٦٢ ، ٦٣ .
(٤) انظر : لسان العرب ـ سير .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وذلك على معنى مَحِيق ، وهو النقصان وذهاب البركة ، وشيء ما حق ذاهب ، فقال المفضّل النكري ، يصف رمحا عليه سنان من حديد أو قَرْن (١) .

وموسيقى القصيدة عذبة ، وقافيتها رصينة ، تدلّ على بدويّة الشاعر ، وتُناسب جوّ الحروب والشدّة ، ووزنها ـ وهو بحر الوافر ـ من أخصّ الأبحر بشعر الحرب .

---

(١) انظر : لسان العرب ـ محق .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

اسمه ونسبه :

هو العبّاس بن مرداس السُّلميّ [١] ، يُكنّى أبا الهيثم ، ويقال أبو الفضل ، وهو أحد فرسان الجاهليّة وشعرائهم المذكورين [٢] .

وكان العبّاس فارساً شاعراً شديد العارضة والبيان ، سيّدا في قومه من كلا طرفيه [٣] ، وهو مخضرم أدرك الجاهلية والإسلام ، وكان يقال له "مُقطّع الأوتاد" [٤] .

وكان العباس ينزل البادية بناحية البصرة [٥] ، وقد أسلم قبل فتح مكّة ، وحضر مع النبيّ صلّى الله عليه وسلم يوم الفتح في تسعمائة ونيّف من سليم بالقنا والدروع والخيل ، وكان يرجع إلى بلاد قومه ، ولا يسكن مكّة ولا المدينة [٦] .

---

(١) أبوه مرداس بن أبي عامر ، من سادات سليم وفرسانها ، كان حاجباً لحرب بن أميّة في الجاهلية (الروض الأنف في تفسير السيرة النبوية لابن هشام ، السهيلي ، قدّم له وعلّق عليه وضبطه طه عبد الرؤوف سعد ، مكتبة الكليات الأزهرية ، القاهرة ، طبعة جديدة ومنقّحة ، ١٩٧١ ، ٤/ ١١٩) ، ومرداس هي الحصاة التي يُرمى بها في البئر ليظهر هل فيها ماء أولا (الشعر والشعراء ، لابن قتيبة ، تحقيق وشرح أحمد محمد شاكر ، دار المعارف بمصر ، القاهرة ، ١٩٦٦ ، ص: ٣٠٠) ، وأمّه الخنساء الشاعرة بنت عمرو ابن الشريد (الأغاني ، ١٤/ ٢٨٥ ، وخزانة الأدب ، ١/ ٧٣) ، وللعبّاس ابن يقال له جاهِمَة يروي عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أحاديث ، وكان للعبّاس فرس يقال له العُبَيْد ، فكان يُدعى فارس العبيد (الشعر والشعراء ، ص: ٧٤٨ ، والخزانة ، ١/ ٧٤) ، والعبّاس من رُواة الحديث المقلين ، فقد عدّه ابن حزم من أصحاب الأربعة ، أي الذين رووا أربعة أحاديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وروى عنه كنانة وعبد الرحمن بن أنس السلمي (جوا مع السيرة وخمس رسائل أخرى ، ابن حزم ، تحقيق الدكتور إحسان عبّاس والدكتور ناصر الدين الاسد ومراجعة أحمد محمد شاكر ، دار المعارف بمصر ، القاهرة ، ص: ٢٩١ ، والإصابة في تمييز الصحابة ، ابن حجر العسقلاني ، دار الكتب العلميّة ، بيروت ، ١٩٠٩ ، نسخة طبق النسخة المطبوعة سنة ١٨٥٣م ، ٤/ ٣١) .

(٢) انظر: معجم الشعراء ، المرزباني ، تحقيق عبد الستّار أحمد فرّاج ، دار إحياء الكتب العربية ، القاهرة ، ١٩٦٠ ، ص: ١٠٢ ، والروض الأنف ، ٤/ ١١٩ .

(٣) ويقال إنّه كان ممن حرّم الخمر على نفسه في الجاهلية ، إذ يقول : "لا أشرب شرابا أصبح سيّد قومي وأمسي سفيههم" (المُحبّر ، لابن حبيب ، رواية أبي سعيد الحسن ابن الحسين السّكري عن المؤلف ، تصحيح إيلزة ليختن شتيتر ، حيدر آباد الدكن ، مطبعة جمعية دائرة المعارف العثمانية ، ١٩٤٢ ، ص: ٢٣٧) .

(٤) انظر: الأغاني ، ١٤/ ٢٨٥ ، ٢٩٨ .

(٥) انظر: الإصابة ، ٤/ ٣١ .

(٦) انظر: الشعر والشعراء ، ص: ٧٤٨ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

واختلف الرُّواة في آخر مقام له ، فالمشهور أنّه مات في بادية البصرة ، وكان ذلك في خلافة عمر بن الخطّاب ، ويقال إنّه نزل دمشق وابتنى فيها دارا ، وكأنّه مات في خلافة عثمان [١] .

منزلته الشعريّة :

العبّاس بن مرداس السُّلميّ شاعر متقدّم من شعراء الجاهليّة [٢] ، وهو أحد الشعراء الذين ظهروا في أيّام العرب في الجاهليّة ، وكانوا أبطالاً في الفتوحات الإسلامية .

وقد عدّه الأصمعيّ مع عنترة والزّبرقان ، أشعر الفرسان ، بيد أنّه لم يقل إنّهم فحول [٣] .

وكانت إحدى قصائده المختارة في حماسة المرزوقي [٤] من عيون الشعر في رأى أسامة ابن منقذ [٥] ، ومنها :—

ترى الرجل النحيف فتزدريه ... وفي أثوابه أسدٌ مزيرُ
ويعجبك الطريرّ فتبتليه ... فيخلفُ ظنّكَ الرجلُ الطريرُ
فما عِظَمُ الرجالِ لهم بفخرٍ ... ولكنْ فخرهمْ كرمٌ وخيرُ

وله ديوان شعر ، ويمكن أنْ نتبيّن من خلال شعره الذي قاله قبل أن يسلم ، عهدين متميّزين ؛ الأوّل يظهر فيه فارساً من فرسان قومه ، وشاعراً مدافعاً عن قبيلته ، مشاركا في أيّامها

---

(١) انظر: تهذيب التهذيب ، ابن حجر العسقلاني ، دار الفكر للطباعة والنشر ، دمشق ، الطبعة الأولى ، ١٩٨٤ ، ٥/ ١١٤ .
(٢) انظر: تاريخ التراث العربي ، فؤاد سوزكين ، نقله إلى العربية د . محمود فهمي حجازي ، راجع الترجمة د . عرفة مصطفى ود . سعيد عبد الرحيم ، دار الثقافة والنشر بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلاميّة ، الرياض ، ١٩٨٣ ، الجزء الثاني ، العصر الجاهلي ، ص: ١٧٣ ، ٢٣٢ .
(٣) انظر: فحولة الشعراء ، الأصمعي ، شرح وتحقيق ونشر الأساتذة محمد عبد المنعم خفاجي وطه محمد الزيني ، المطبعة المنيريّة بالأزهر ، القاهرة ، الطبعة الأولى ، ١٩٥٣ ، ص: ٢٦ ، ٣٥ ، ٤٤ .
(٤) انظر: شرح ديوان الحماسة ، المرزوقي ، ص: ١١٥٣ — ١١٥٦ .
(٥) انظر: كتاب العصا ، ص: ١٨٤ ، نقلاً عن : تاريخ التراث العربي ، الجزء الثاني ، العصر الجاهلي ، ص: ٢٣٣ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وحروبها ، وهو مع شرفه ومكانته في القبيلة فرد فيها ، وهذا في عهد كانت الزعامة في بني سليم لصخر بن عمرو بن الشريد أخي الخنساء الشاعرة ، بعد أخيه معاوية [١] ، وقد طعن صخر في يوم ذات الأثل ، ومات بعد ذلك [٢] .

وأمّا العهد الثاني ، فبعد موت صخر . وقد نظر إلى زعامة سليم وقيادة فرسانها ، كلٌّ من العباس بن مرداس ، وخُفاف بن نُدْبَة ، وكان كلٌّ منهما يرى نفسه أهلاً لقيادة قومه وزعامتهم ، فكان العباس يهاجيه ، ثم تمادى الشرُّ بينهما إلى أنْ احتربا وكثرت القتلى بينهما ، فخلعتهما بنو سليم ، واتّاهما دريد بن الصِّمة ومالك بن عوف النصريّ رأس هوازن ، وأصلحا بينهما [٣] .

وأبرز أغراض شعره في الجاهليّة الهجاء والمناقضات ، إذْ تشغل نقائض العباس وأهاجيه جزءاً كبيراً من ديوانه ، فقد خصّ خُفاف بن نُدْبَة السُّلميّ بتسع عشرة قصيدةً وقطعة [٤] .

ومن أغراض شعره الفخر ، ويحتل قسماً كبيراً منه ، فقد وقف العبّاسُ كثيراً من شعره في الدّفاع عن قومه والإشادة بمكارمهم وبطولتهم ، والبرّ بهم والحفاظ عليهم [٥] ، سواء عندما كان فرداً من أفراد قبيلته أيّام معاوية وأخيه صخر ، أو عندما كان رئيساً لبني سليم . ومنها أيضا المدح والرثاء ، وهما غرضان قليلان في شعره .

أمّا في الإسلام فيُلاحظ اختفاء الهجاء والمناقضات ليحلّ محلّها المديح ، وأكثره في مدح الرسول عليه السلام . واستمرّ مع ذلك يفخر بقومه بني سليم ودورهم في فتح مكة ويوم حُنَيْن ، وهذا يفسّر الروح الأعرابيّة التي بقي العباس ينزع لها في إسلامه من خلال فخره الشديد بقومه ، إذْ يمتزج الزهو بالنصر والتمجّد بقومه الألف الذين نصروا الرسول صلّى الله عليه وسلم ، مع الفخر بالإسلام والاعتزاز بالدين [٦] .

---

(١) انظر: ديوان العباس بن مرداس السُّلمي ، حقّقه الدكتور يحيى الجبوري ، دار الجمهورية ، بغداد ، ١٩٦٨ ، ص: ٦ .
(٢) انظر: الأغاني ، ١٥/ ٦٢ .
(٣) انظر: الشعر والشعراء ، ص: ٧٤٦ .
(٤) انظر: ديوان العباس بن مرداس السُّلمي ، ص: ٦ .
(٥) انظر: المصدر نفسه ، ص: ٣١ ، ٣٢ ، ٣٣ ، ٣٤ ، ٤٧ ، ٤٨ ، ٥٣ ، ٥٤ ، ٥٦ ، ٥٧ ، ٥٨ ، ٥٩ ، ٦٠ ، ٦٣ ، ٦٤ ، ٧٧ ، ٧٨ ، ٧٩ ، ٨٠ ، ٨١ ، ٨٢ ، ٨٨ ، ٨٩ ، ٩٠ .
(٦) انظر: الديوان ، ص: ٧٣ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ويتّسم شعر العبّاس بالجزالة والرصانة والفصاحة ، ولا غَرْوَ في ذلك ، فإنّ العبّاس شاعر بدوي قُحّ ، لذلك جاءت ألفاظه فصيحة وصوره مستمدّة من البيئة البدويّة الجاهلية التي عاش فيها ولزمها . فمستواه الفني جيّد ، لا فرق في ذلك بين شعره في الجاهليّة وشعره في الإسلام ؛ لأنّ العباس لم يكن من متقدّمي المسلمين ، فقد أسلم قبل الفتح بقليل ، فظلّ ينزع نزعةً أعرابيّة[1] ، ظهر ذلك في عتابه للنبيّ للعطايا التي أعطاه إيّاها مع المؤلّفة قلوبهم[2] ، وفي استمراره في التغني بالفخر بقومه في قصائده الإسلامية .

مكانة قصيدته المنصفة بين شعره :

هذه هي قصيدة العباس المُنْصِفَة ، ومطلعها[3] :

لأسماءَ رسمٌ أصبحَ اليومَ دارِسَا وأقْفَرَ منها رَحْرَحانَ فَراكِسَا

وكان العبّاس قد جمع جمعاً من بني سُلَيْم ، فيه من جميع بطونها ، ثم خرج بهم حتى صبّح مُراداً — ورئيسها عمرو بن معد يكرب الزبيدي — بتثليث من أرض اليمن ، بعد تسعٍ وعشرين ليلةً ، فقتل فيهم عدداً ، وغَنِمَ حتى ملأ يديه ، وقال في ذلك[4] :

فدَعْها ولكنْ هَلْ أتاها مَقادُنا لأعْدائنا تُزْجي الثِّقالَ الكَوانِسَا
بجَمْعٍ يُرِيدُ ابنَيْ صُحارٍ كليهما وآلَ زُبَيْدٍ مُخْطِئاً ومُلامِسَا
على قُلُصٍ نَعْلو بها كُلَّ سَبْسَبٍ تخالُ بها الحِرْباءَ أشْمطَ جالِسَا
سَمَوْنا لهمْ تِسْعاً وعشرين ليلةً نجوبُ من الأعْراض قفراً بَسابِسَا

---

(١) انظر: الديوان ، ص: ١٤ .

(٢) فقد رُوي أنّ العبّاس غضب وقال في ذلك شعراً يعاتب النبيّ ، ويذكر أنّه قصّر به لأنّه أعطاه دون عيينة بن حِصْن والأقرع بن حابس :

أتجعلُ نَهْبي ونَهْبَ العُبَيْـ ـدِ بين عُيَيْنَةَ والأقْرَعِ
وكانتْ نِهاباً تَلافَيْتُها بِكَرّي على المُهْرِ في الأجْرَعِ
وما كان حِصْنٌ ولا حابِسٌ يفوقانِ مِرداسَ في مَجْمَعِ
وقد كنتُ في الحربِ ذا تُدْرَأٍ فلم أُعْطَ شيئاً ولم أُمْنَعِ
وكانت أفائلُ أعطيتُها عديدَ قوائمِه الأرْبَعِ

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : اقطعوا عنا لسانه ، فزادوه (الشعر والشعراء ، ص: ٢٤٨) .

(٣) الأصمعيات ، ص: ٢٠٤ .

(٤) المصدر نفسه ، ص: ٢٠٥ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وهو ينصف قومه وخصومه إنصافا رائعاً ، إذْ لم ير قوماً مُغاراً عليهم مثل خصومه ، ولا فوارس يخيرون مثل قومه ، ولم ير مثل أعدائه أبلغ حماية للحقوق ، ولا فرساناً مثل قومه أضرب بالسيوف للقوانس ، وكلّ حملةٍ تشدها سليم ، تصدها مراد بصدور الخيل ورؤوس الرماح ، وإذا الخيل جالَتْ عن صريع من هؤلاء ، كرَّتْ ثم أجْلَتْ عن صريعٍ من أولئك ، يقول [١] :

فلمْ أرَ مثلَ الحيِّ حيّاً مصبَّحاً ... ولا مثلَنا لمّا التقينا فوارِسَا

أكرَّ وأحمى للحقيقةِ منهمُ ... وأضربَ منّا بالسيوفِ القَوانِسَا

إذا ما شَدَدْنا شدَّةً نصبُوا لها ... صُدورَ المذاكي والرِّماحَ المَداعِسَا

إذا الخيلُ جالَتْ عن صريعٍ نَكرُّها ... عليهمْ فما يرجعن إلاَّ عوابسا

ويبدو أنّ العبّاس قالها في الفترة الثانية من حياته الجاهليّة ، عندما كان رئيساً لبني سُلَيْم بعد مقتل صخر بن عمرو بن الشّريد في يوم ذات الأثل .

وتحتلّ قصيدته المنصفة مكاناً متقدّماً بين سائر أشعاره موضوعيّاً وفنّياً ، فمن حيث الأغراض ، نراها جاءت وسطا بين الفخر والمدح في شعره .

وهو عندما يفتخر ، لم يكن ينسى أعداءه ، فلا يرميهم بالجبن ، بل يصفهم بالشجاعة ، يظهر ذلك واضحاً في النقيضة التي نشأت بينه وبين ابن عمّه خفاف بن ندبة السلمي ، ومنها [٢] :

هَزَمْنا إذْ لَقِينا جيشَ رِعْلٍ ... وذَكْوانًا وجَمْعَ بني خُفَافِ

وما إنْ طِبُّهمْ جُبْنٌ ولكنْ ... رميناهمْ بثالثةِ الأثافي

وهو عندما يمدح ، كان يمدح أُناساً من خارج قبيلته ، يظهر ذلك في الأبيات التي مدح بها قيس بن عاصم [٣] .

---

(١) الأصمعيّات ، ص: ٢٠٥ ، ٢٠٦ .

(٢) الحماسة الشجريّة ، ص: ١٣٦ .

(٣) قال أبو عبيدة : جاور رجل من بني القين من قضاعة ، قيس بن عاصم ، فأحسن جواره ، ولم يرَ منه إلا خيراً حتى فارقه ، ثم نزل عند جوين الطائي أبي عامر بن جوين ، فوثب عليه رجالٌ من طيّء ، فقتلوه وأخذوا ماله . فكبر ذلك على العبّاس ، فقال قصيدته يُثني فيها على قيس ويعيّر الطائيّين ويهجوهم : ـ

لعمري لقد أوفى الجوادُ ابنُ عاصمٍ ... وأحصنَ جاراً يوم يجدعُ بَكْرَهْ

أقام عزيزاً منتدى القومِ عندهُ ... فلمْ يَرَ سوءاتٍ ولم يَخْشَ غدْرَهْ

أقام بسعدٍ يشربُ الماءَ آمِناً ... ويأكل وسطاها ويربض حَجْرَهْ

فإنك إذْ بادلتَ قيس بن عاصمٍ ... جوينا لمختار المنازل شرّه

فأصبح يحدو رَحْلَهُ بمفازةٍ ... وماذا عدا جاراً كريمًا وأسْرَهْ ===

===

وبإمكاننا أنْ نعدّ شخصيّة العباس شخصيّة سويّةً وليست متهوّرة ، فهو لم يكن هجّاءً خبيث اللسان ، بل إنّنا نرى الهجاء ضعيفاً في شعره ، على كثرة النقائض بينه وبين خصومه . وإذا استقرأنا شعره ، وجدنا أنّه لم يكن في هجائه يهجو خصومه هجاءً خبيثاً ، أو يذمّهم ذمّاً قبيحاً ، بقدر ما كان يفخر بنفسه وبقومه .

ونستطيع أن نقول : إن الفخر هو اللون الشائع في شعر العباس ، وهو عندما ينصف أعداءه ، أو يمدح قوما من خارج قبيلته ، فإنّه يفعل ذلك لخدمة غرضه الأصليّ وهو الفخر ، وممّا يعضد هذا الرأي أننا نرى العباس في منصفته قد عدل عن الإنصاف إلى الفخر ، نجد ذلك واضحا في قوله (1) :

وكنّا إذا ما الحربُ شبّتْ نَشُبُّهـا ... ونضربُ فيها الأبلجَ المُتَقاعِسـا
فأُبْنا وأبْقى طعنُنا مِنْ رِماحنـا ... مَطارِدَ خَطيّةٍ وحُمْراً مَداعِسـا
وجُرْداً كأنّ الأسد فوق مُتونِهـا ... من القوم مرؤوساً وآخرَ رائِسـا

ومع الفخر الذي وسم شعر العباس ، نجد أنّ الإنصاف كان يأخذ طريقه فيه ، فكان لنا من شعره هذه المنصفة ، استحقّ بها أن يكون من أبرز شعراء القصائد المنصفات .

ومن ناحية فنّية ، تعدّ هذه القصيدة في مستوى باقي أشعاره إنْ لم تتفوّق عليها ، كما تتقدّم على غيرها من القصائد المنصفات ، يظهر ذلك في حُسْنِ التخلّص من المقدمة الطلليّة إلى موضوع القصيدة المباشر ، وفيما عبّر به عن المعاني الحسّيّة للحياة الجاهلية وصلتها بالوقائع الحربية ، وفيما اختار من ألفاظ ملائمة لتلك المعاني المطروقة .

===
يظلّ بأرض الغَدْر يأكلُ عهده ... جُوَيْنٌ وشَمْخٌ خارِبَيْن بوَجْرَهْ
يَذُمّانِ بالأزوادِ والزادُ مُحْرَمٌ ... سَروقان مِنْ عِرْقٍ شرورا وفَجْرَهْ

(1) الأصمعيّات ، ص : ٢٠٧ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

اسمه ونسبه :

هو كعب بن معدان الاشقري ، من الاشاقر ، وهم قبيلة من الأزد ، يُكنّى أبا مالك ، وأمّه من عبد القيس[١] ، ولا تكاد كتب الأدب والتراجم أنْ تُلِمّ من أخبار كعب إلاّ النزر اليسير ، فأخباره في الشطر الأوّل من عمره قليلة ، بل ضائعة مجهولة ، ويظنّ الدكتور حسين عطوان أنّ الشاعر بصري المولد والمربى[٢] ، وأنّه حين بلغ سنّ الفتيان ، اتّصل بالمهلّب ابن أبي صفرة ، وكافح معه الخوارج بفارس[٣] ، إذْ يقول أبو الفرج الأصفهاني[٤] : "إنّه شاعر فارس خطيب من شعراء خراسان معدود في الشجعان ، في جِلّة أصحاب المهلّب ، والمذكورين في حروب الأزارقة " .

---

(١) انظر: الاشتقاق ، ابن دريد ، ص: ٢٩٤ ، والأغاني ، ١٤/ ٢٦٦ ، ومعجم الشعراء ، المرزباني ، ص: ٢٣٦ . وجمهرة أنساب العرب ، ابن حزم ، ص: ٣٨١ . وسمط اللآلي ، البكري ، ص : ٥٨٨ .

(٢) انظر: الشعر في خراسان من الفتح إلى نهاية العصر الأموي ، الدكتور حسين عطوان ، دار الجليل ، بيروت ، الطبعة الثانية ، ١٩٨٩ ، ص: ٢٤١ .

(٣) ذكر الأصفهاني أنّ المهلّب بن أبي صفرة أوفده إلى الحجاج ، فأوفده الحجاج إلى عبد الملك ، وذلك بسبب أبيات قالها كعب يعرّض فيها بالحجّاج ، فبلغت أبياته الحجّاج (الأغاني ، ١٤/ ٢٦٦) . وعندما عيّن المهلب والياً على خراسان رافقه كعب وجاهد معه الترك بما وراء النهر (تاريخ الطبري ، ٦/ ٣٥٢) . ولما توفّي المهلب حفّ كعب بأولاده ، وقاتل معهم ، ومدحهم ، فقد شهد فتح يزيد بن المهلب لقلعة باذغيس سنة أربع وثمانين ، ومدحه ، وحضر احتلال المفضّل بن المهلب للقلعة مرّة ثانية سنة خمس وثمانين ، وسجّل اكتساحه لها في مقطوعة من شعره (تاريخ الطبري ٦/ ٣٨٦ ، ٣٩٧ ، ٣٩٨) . وبعد أن عزل الحجّاج بن يوسف المهالبة عن إدارة خراسان ، وأسند حكمها لقتيبة بن مسلم ، لم ينزو كعب عنه ، ولم ينكب على نفسه ، كما فعل غيره وإنما قصده وخاض بجانبه أكثر الوقائع التي نازل فيها الترك (تاريخ الطبري ، ٦/ ٤٧١ ، ٤٧٢) . وانفعل ببطولاته وانتصاراته ، وخلد اجتياحه لخوارزم في مقطوعة لام فيها يزيد بن المهلب ، لأنه كان وجّه إليها حملة ، فلم يتمكّن من احتلالها (الأغاني ، ١٤/ ٢٨٢) . وبلغت مقطوعته ابن المهلب فغضب عليه ، وما هي إلاّ أنْ يُغتال قتيبة ، ويقبل ابن المهلب والياً على خراسان للمرة الثانية ، فيسجن كعباً ، ثم يطلق سراحه (الأغاني ، ١٤/ ٢٨١) ، ويرجّح الدكتور حسين عطوان أنّه أقام بخراسان في ولاية ابن المهلب ، واستمرّ يقيم بخراسان بعد إقصاء عمر بن عبد العزيز لابن المهلب عنها . وأقوى برهان على ذلك أنه ضجّ بالشكوى من عمّال الخوارج بخراسان في خلافة عمر بن عبد العزيز ، وبعث إليه قصيدة دعاه فيها إلى محاسبة الخونة منهم حساباً شديداً (الشعر في خراسان ، ص : ٢٤٣ والبيان والتبيين ، ٣/ ٣٥٨ ، ٣٥٩) ثم فرّ الى عمان بعد أنْ نُمِيَ إليه أنّ المهالبة يدبّرون لقتله ، وظلّ ينزل بها حتى أغرى به ابنُ المهلب ابنَ أخيه ، فقتله سنة اثنتين ومائة .

(٤) انظر : الأغاني ، ١٤/ ٢٦٦ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

منزلتـــه الشّعريـــــــــة :

كعب الأشقريّ شاعر متقدِّم مُجيد من شعراء العصر الأموي ، وهذا عبد الملك بن مـروان يشهد له بالتفوّق على الشعراء ، فقد رَوى أبو الفرج الأصفهاني (١) ، أنّ عبد الملك بن مـروان كان يقـول للشّعراء : تُشبّهـونني مرة بالأسد ، ومرّة بالبازي ، ومرّة بالصقر ، ألا قلتم كما قـــال كعب الأشقري في المهلّب وولـــــــده !

براكَ اللهُ حين بـراكَ بحـــرًا ... وفجّرَ منكَ أنهـــاراً غِـــــزارا
بنوك السابقون إلى المعالــــي ... إذا ما أعظم الناسُ الخِطـــــارا
كأنّهمُ نجومٌ حولَ بَـــــدْرٍ ... دراريٌّ تكمّـلَ فاستـــــدارا
ملوكٌ ينزلون بكـلِّ ثَغْـــــرٍ ... إذا ما الهامُ يوم الرّوْعِ طــــارا
رُزانٌ في الأمور ترى عليهـــــم ... من الشيخ الشمائل والنِّجـــارا
نجومٌ يُهْتَدَى بهم إذا مـــــا ... أخو الظّلماءِ في الغمراتِ حـــارا

ويُروى أنّ كعباً الأشقري قال لعمر بن عبد العزيـــــز :

إنْ كنت تحفظُ ما يليك فإنّمـــــا ... عمّالُ أرضكَ بالبلاد ذئـــــابُ
لن يستجيبوا للّذي تدعـو لـــــه ... حتى تُجلّدَ بالسيوفِ رقـــــابُ (٢)
بأكُفِّ مُنْصَلِتينَ أهل بصائـــــرٍ ... في وقعهنّ مزاجـرٌ وعِقـــــابُ (٣)
هلاّ قريشٌ ذكرتْ بثغورهـــــا ... حَزْمٌ وأحلامٌ هناك رِغـــــابُ (٤)
لولا قريشٌ نَصْرُها ودِفاعهَـــــا ... أُلْفِيتُ منقطعاً بي الأسبـــــابُ

فلمّا سمع هذا الشعر قال : لِمَنْ هذا ؟ قالوا : لرجلٍ من أزْدِ عُمان ، يقال له كعب الأشقـري! قال : ما كنتُ أظنّ أهل عمان يقولون مثل هذا الشعـــــــر (٥) .

ويُروى أنّ الفرزدق قال شعراء الاسلام أربعة : أنا ، وجرير ، والأخطل ، وكعب الأشقري (٦)

---

(١) انظر: الأغانـــــي ١٤ ، ٢٦٩/ ٢٧٠ ، ٠
(٢) تجلـــد : تضـــرب .
(٣) المنصلت : الماضي في الأمر . البصائر: جمع بصيرة ، وهي العلم واليقين ، وكل ما يلبس من السلاح كالترس والدرع ، والمعنى يحتمل كلا منهمـــــا .
(٤) الأحلام : العقول . رغاب : جمع رغيب ، وهو الواســـــع .
(٥) انظر: البيان والتبيين ٣ ، ٣٥٨/ ٣٥٩ .
(٦) انظر : الأغانـــــي ١٤ ، ٢٦٦/ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وقيل للفرزدق : يا أبا فراس، أشَعَرْتَ أنّه قد نَبَغَ مِنْ عُمَانَ شاعرٌ من الأَزْد يقال له كعب ؟ فقال الفرزدق : "إي والذي خلق الشعر" (١) .

ويُروى عن المنصور (٢) أنّه قال لابن هَرْمَة ـ وقال له قد مدحتُك بمدحةٍ، لم يُمْدَحْ أحدٌ بمثلها . فقال المنصور ـ ، وما عسى أنْ تقول فيّ بعد قول كعب في المهلّب ، وأنشد هذين البيتين :

براك الله حين براك بحراً	وفَجَّرَ منك أنهاراً غِزارا
بنوك السابقون إلى المعالي	إذا ما أعظم الناس الخِطارا

هذه الأقوال ، وما وجدناه من إعجاب الخليفة الأموي عبد الملك بمديحه للمهلّب وولده، وشهادة الفرزدق له بالتقدّم والنبوغ، وعتاب المنصور للشاعر ابن هرمة ، لأنّه لم يقل فيه ما قاله كعب في المهلّب . . . تدلّ على أنّ باع الشاعر كان طويلاً ، وأنّ قدرة شعرية فائقة كانت تختفي وراء هذا الشعر القليل الذي حفظته مصادر الأدب (٣) .

وليس له ديوان شعر ، ولكنّ الطبري والأصفهاني أوردا معظم شعره ، وجمعه الدكتور نوري حمودي القيسي . فقد أورد الطبري قصائد كاملة له ، منها قصيدتُه المنصفة البالغة حوالي ثلاثة وثمانين بيتا ، وقصائد ومقطّعات أخرى ، بحيث يصبح عدد الأبيات التي استشهد بها الطبري يزيد على مائة وثلاثين بيتاً . أمّا أبو الفرج الأصفهاني فقد أغفل ذكر تلك القصائد ، واكتفى بإيراد بعضها ، وكان يقول (٤) : " . . . وهذه الأبيات من القصيدة التي أولها :

طربت وهاج لي ذاك ادّكارا "

ويقول أيضا (٥) : "وهي قصيدة طويلة ، قد ذكرها الرواة في الخبر ، فتركتُ ذكرها لطولها ".

وقد أورد لنا أبو الفرج الأصفهاني أكثر من تسعين بيتاً ، انفرد بذكر بعضها، وقدّم لها بمقدمات تكشف عن الجوانب التي ساهم فيها الشاعر مساهمةً بارزة ، وتكاد تكون هذه المقدّمات والأخبار من المراجع المهمّة التي تُعيننا على دراسة حياته وشعره (٦) .

(١) انظر: الأغاني ، ١٤/ ٢٦٦ .
(٢) انظر: معجم الشعراء ، ص: ٢٣٦ ، ٢٣٧ .
(٣) انظر: شعراء أمويّون ، دراسة وتحقيق الدكتور نوري حمودي القيسي ، المكتبة الوطنية ، بغداد ، ١٩٧٦ ، القسم الثاني ، ص : ٣٨٥ .
(٤) انظر: الأغاني ، ١٤/ ٢٧٢ .
(٥) انظر ، المصدر نفسه ، ١٤/ ٢٦٧ .
(٦) انظر: شعراء أمويون ، القسم الثاني ، ص: ٣٨٧ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وقد استفرغ كعب شعره في مدح المهلب وولده[1] ، وذكر حروبهم مع الأزارقة بفارس ، وهو في ذلك المديح يقف منشيداً بمآثرهم ، متعصباً لقومه الأزد ، مفتونا بهم . ومن ذلك قصيدته الرائيّة التي قالها يمدح فيها المهلب وأبناءه ، ويذكر قتالهم للأزارقة ، ومطلعها[2] :

طَرِبْتُ وهاج لي ذاك ادّكارا ... بِكَسٍّ وقد أطلت به الحصارا

وكان كعب يشهد الفتوحات الاسلامية ويرافق الحملات ، فيقف على المعارك بحقائقها ووقائعها ، ويسجّل ذلك في شعره[3] .

---

(١) انظر : معجم الشعراء ، ص : ٢٣٦ .

(٢) الاغاني ، ١٤/ ٢٦٥ . يقول فيها :

سَلُوا أهل البطائح من قريشٍ ... عن العِزِّ المُؤيَّد أين صارا
وَمَنْ يحمي الثغورَ إذا استحرَّتْ ... حروبٌ لا ينون لها غِرارا
لقومي الأزد في الغمرات أمضى ... وأوفى ذمّةً وأعزُّ جارا
همُ قادوا الجيادَ على وجاها ... من الأمصار يَقْذِفْنَ المهارا
بكلِّ مفازةٍ وبكلِّ سهبٍ ... بسابسَ لا يرون لها منارا
إلى كِرْمانَ يحملن المنايا ... بكل ثنيّةٍ يُوقِدْنَ نارا
شوازبَ لم يُصِبْنَ الثأرَ حتى ... رددناها مكلّمةً مِرارا
ويشجُرْنَ العوالي السُّمْرَ حتى ... ترى فيها عن الأسَلِ ازورارا
غداةَ تَرَكْنَ مصرعَ عبدِ ربٍّ ... يُثِرْنَ عليه من رَهَجٍ عِصارا
فلولا الشيخُ بالمِصْرَيْنِ ينفي ... عدوَّهم لقد تركوا الديارا
ولكنْ قارعَ الأبطالَ حتى ... أصابوا الأمنَ واجتنبوا الفِرارا
إذا وهنوا وحلَّ بهم عظيمٌ ... يدقُّ العظمَ كان لهمْ جبارا
ومبهمةٍ يَحيدُ الناسُ عنها ... تشبُّ الموتَ شدَّ لها الإزارا
شِهابٌ تنجلي الظلماءُ عنه ... يرى في كلِّ مبهمةٍ منارا
بل الرحمان جارك إذْ وهنّا ... بدفعك عن محارمنا اختيارا
براك الله حين براك بحراً ... وفجَّرَ منك أنهاراً غِزارا
بنوك السابقون إلى المعالي ... إذا ما أعظم الناس الخِطارا
كأنهمْ نجومٌ حول بدرٍ ... دراريٌّ تكمَّلَ فاستدارا
ملوكٌ ينزلون بكل ثغرٍ ... إذا ما الهامُ يوم الرَّوْعِ طارا
رُزانٌ في الأمور ترى عليهم ... من الشيخ الشمائلَ والنِّجارا
نجومٌ يُهْتَدى بهم إذا ما ... أخو الظلماءِ في الغمراتِ حارا

(الاغاني ، ١٤/ ٢٧٠ ، ٢٧٨ ، ٢٧٩ ، ٢٨٠) .

(٣) وتتوضح بعض هذه اللمحات في الأبيات التي يشير فيها إلى فتح سمرقند ، يقول :

لو كنتَ طاوعتَ أهل العَجْز ما اقتسموا ... سبعين ألفاً وعِزّ السُّغْدِ مؤتنِفُ
وفي سمرقندَ أخرى أنت قاسِمُها ... لئن تأخَّر عن حَوْبائك التَّلَفُ
ما قدم الناسُ مِنْ خيرٍ سَبَقْتَ به ... ولا يفوتك مِمّا خلّفوا شَرَفُ

(تاريخ الطبري ، ٦/ ٤٧١) .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ومن أغراضه الشعريّة الهجاء ، وقد صبّ أكثره على عبد القيس، ويُعدّ هجاء كعب هجاء قبليّا سياسيا ، إذْ الهدف منه الذبّ عن الأزد ، ونقض تخرّصات خصومهم التي عابوا بها زعماءهم . والهدف منه أيضا المحافظة على مصالح الأزد ، والدعوة إلى احتجاز كل فائدة وسلطة لهم ، والمناداة بإعادة النظر في سياستهم لحلفائهم ، والبحث عن أسلوب جديد في معاملتهم ، يلائم موقف كل حليف منهم ، ويعادله ويكافئه [١] .

ويتّسم شعر كعب بسهولة الألفاظ ، وسلاسة التعبير ، لأنه لا يهدف منه إلى تعقيد في الأسلوب ، أو إلى غموض في البيان ، فهو يسعى إلى التعبير عن إحساسه الصادق في كل مناسبة من المناسبات ، ولم يحتجّ وهو في مثل تلك المواقف ، إلى التراكيب المهمّة التي تفقد شاعريّته أصالتها ، ولهذا كان شعره واضحا ، وكانت معانيه قريبة [٢] .

مكانة قصيدته المنصفة بين شعره :

له قصيدة منصفة مطلعها [٣] :

يا حفصُ إنّي عداني عنكمُ السّفرُ ... وقد أرِقْتُ فآذى عينيَ السّهرُ

وهي من قصائده الجياد الطّوال في الفتوح الإسلامية ، يقول فيها بعد المقدمة الغزليّة ومديح الحجّاج ، واصفاً حال الناس بالبصرة ، واستخفافهم بأمر الأزارقة ، حتى تكاثفوا وتعاظم خطرهم ، فاختبأ الرجال في منازلهم ، وأحجموا عن قتالهم ، فأصبحوا كالنساء يرتجفون رعباً ورهباً ، حتى إذا هبّ المهلّب لنضالهم ، لبّت قبيلته نداءه ، وخرجت في كتائب جرّارة لمكافحتهم [٤] :

واستسلم الناسُ إذْ حلّ العدوّ بهمْ ... فما لأمرِهِمُ ورد ولا صَدَرُ
وما تجاوزَ بابَ الجِسْرِ مِنْ أحَدٍ ... وَعَضّتْ الحربُ أهلَ المصرِ فانجحروا
وأُدخل الخوفُ أجوافَ البيوتِ على ... مثل النساءِ رجالٌ ما بهم غِيَرُ
واشتدّتْ الحربُ والبلوى وحلّ بنا ... أمرٌ تَشَمّرُ في أمثاله الأزُرُ

---

(١) انظر: الشعر في خراسان ، ص: ٢٥٤ .
(٢) انظر: شعراء أمويون ، القسم الثاني ، ص: ٣٨٨ .
(٣) تاريخ الطبري ، ٦/ ٣٠٤ .
(٤) المصدر نفسه ، ٦/ ٣٠٥ ـ ٣٠٧ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

نظلّ من دون خَفْضٍ معصمينَ بهــم ... فشمّرَ الشيخُ لمّا أعظم الخطــرُ
كنّا نهوّن قبل اليوم شأنهُــمُ ... حتى تفاقمَ أمرٌ كان يُحْتَقَــرُ
لما وهنّا وقد حلوا بساحتنــا ... واستنفرَ الناسُ تاراتٍ فما نفــروا
نادى امروٌ لا خِلافٌ في عشيرتــه ... عنه وليس به في مثله قِصَــرُ
تلبّسوا لقراع الحــرب بزّتهــا ... فأصبحوا من وراء الجسر قد عبَــروا

وراح يفصّل في وقائع المهلب والازد مع الازارقة في رامهرمز ، وسابور ، ودشت باريـن ، وجُبَيْرين ، وكرمان ، وما تكبّده الفريقان من الضحايا ، وهو يشيد في بعض تلك الوقائع بثبات الازارقة ، ويعترف بشجاعتهم ، فكأنّهم أبطال من الجـن :

حتى اجتمعْنا بسابورِ الجُنود وقــد ... شُبّتْ لنا ولهمْ نارٌ لها شــررُ
تَلْقى مساعيرَ أبطالاً كأنّهــمُ ... جِنٌّ نقارعهمْ ما مثلهمْ بشَــرُ
نُسْقى ونسقيهمْ سُمّاً على حَنَــقٍ ... مستأنفي الليلِ حتى أسفرَ السَّحَــرُ
قتلى هنالك لا عقلٌ ولا قَــوَدٌ ... منّا ومنهمْ دماءٌ سَفْكُهـا هَــدَرُ

وتكون الموقعة الفاصلة بين الامويّين والازارقة ، فكلٌّ منهما لا يدّخر وسعاً في الإيقاع بخصمه والنيل منه ، ولا يكفّان عن القتال ، إذْ لا عذر يقبل منهما ، وكلّ بما فقد موجع ، وقد ظهرا في قاع من الارض مثل جبلين شامخين ، يكاد بصر المرء يرتدّ كلّما نظر إليهما ، وهم يمشون ــ وقد دجّجوا بالسلاح ــ مشي الفحول تمديهم جماعات من الجنـود :

تأتي علينا حَزازاتُ النّفوس فمــا ... نُبْقي عليهمْ وما يُبْقُون إنْ قــدروا
ولا يقيلوننا في الحرب عَثْرَتَنــا ... ولا نقيلهمُ يوماً إذا عثــروا
لا عذرَ يقبلُ منّا دونَ أنفسِنــا ... ولا لهمْ عندنا عذرٌ لو اعتــذروا
صفّانِ بالقاعِ كالطّوْدَيْنِ بينهمــا ... كالبرق يلمعُ حتى يشخصَ البصــرُ
على بصائرَ كلٌّ غيرُ تاركهــا ... كلا الفريقينِ تُتْلى فيهمُ السُّــوَرُ
يمشون في البَيْضِ والأبدانِ إذ وَرَدُوا ... مشي الزواملِ تهدي صفّهمْ زُمَــرُ

إنّ اعتداد كعب بقومه الازد ، وتهوّره في تحيّزه لهم ، وتفرّغه في مديحه للمهالبة ، وبراعته في تصوير فتوحاتهم ، لم يجعله يتجاهل أعداءهم في ذلك الوصف والمدح ، فنـراه يقف مكبراً إيّاهم أعظم الاكبار ، مشيدا بمآثرهم أبلغ الإشادة ، معترفاً ببطولتهم وشدّة مقارعتهم

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

في ساحة القتال ، نجد ذلك واضحا في هذه القصيدة التي ينصف فيها الخوارج إنصافا رائعا !

ولم يقتصر الإنصاف على هذه القصيدة وحدها ، وإنّما تعدّى غيرها من شعره ، ومن ذلك قوله[١] :

كأنّ القَنا الخَطّيَّ فينا وفيهمُ أشاطينُ بِئْرٍ هَيَّجَتْها المواتِحُ
ودُرْنا كما دارتْ على قطبها الرحى ودارتْ على هامِ الرجال الصفائِحُ

وأنصفَ التُرْكَ الذين لاقتهم جحافل المسلمين ، فلم يولّوا الأدبار ، وإنّما كانوا صامدين في حازّة الموت ، يقول[٢] :

في حازّة الموت حتى جنّ ليلهمُ كلا الفريقين ما ولّى ولا انهزما

ونستطيع أن نعدّ الإنصاف سمةً أخرى يتّسم بها شعر كعب ، ولعلّ شهادة الجاحظ له بأنّه مِن المقتصدين في الشعر[٣] ، أي الذين اقتصدوا في وصف أحوالهم ، ممّا يؤيّد ما نذهب إليه من بعض الوجوه .

ومن ناحية فنية ، فإنّ قصيدته المنصفة تدلّ على قدرة شعريّة فائقة ، ظهرت في تصوير المعركة تصويرًا دقيقًا ، وفي تحليقها عاليا ، وتكاد تكون ملحمةً قصيرةً ، هيّألها طول أبياتها الحماسية منزلة متقدمة على سائر أشعاره !

---

(١) الحيوان ، الجاحظ ، تحقيق وشرح عبد السلام هارون ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، الطبعة الثالثة ، ١٩٦٩ ، ٦/ ٤٢٨ .
(٢) الأغاني ، ١٤/ ٢٦٨ .
(٣) انظر: الحيوان ، ٦/ ٤٢٥، ٤٢٨ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الفصـــل الرابـــــع

"مُوازَنة بين القصائد المنصفات والقصائد الموثّبـــــات"

- المعنـى اللغوي للتوثيـــــب .
- نشـأة الموثّبات ومفهومها الأدبـــيّ .
- المقوّمات الموضوعية للموثّبـــــات .
- السّمات الفنّية للموثّبـــــات .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

المعنـــى اللغـــوي للتوثيـــــب :

قال ابنُ منظـــــور :

" الوَثْب : الطَّفْرُ . وَثَبَ يثبُ وَثْباً ووثباناً ووُثوباً ووِثابا ووَثِيبًا : طفرَ. قال ربيعةُ بـــن مقروم الضبـــــي :

وزعتُ بكا لهِـراوةِ أعْوجيّـــاً ... إذا وَنَتْ الرِّكابُ جرى وِثابـــا

ويروى وَثابا ، على أنّه فعل ، وقد تقدّم . وقال نُصَيْب يصف كبـــره :

وما أُمّي وأُمّ الوحشِ لمّـــا ... تفرّعَ في مفارقي المَشِيـــبُ

وقال الفـــرزدق :

فما أرمي فأقتلَها بسهمـــي ... ولا أعدو فأُدْرِكَ بالوثيـــبِ

وفي حديث عليّ عليه السلام يوم صفّين قدّم للوَثْبة يداً وأخّر للنكوص رِجلاً أي إنْ أصاب فرصةً نهض اليها وإلاّ رجع وتــــرك .

ووثبَ وثبةً واحدةً ، وأوثَبْتُه أنا ، وأوْثَبَه الموضعَ جعله يثبه ، وواثبه أي ساوره .ويقـــال توثّبَ فلانٌ في ضيعة لي أي استولى عليها ظلماً . والوَثَبى من الوَثْب ، ومرةٌ وثَبى سريعـــة الوثب . والوثب القعود بلغة حمير يقال ثِبْ أي اقعد . قال الأصمعي : دخل رجل مـــن العرب على ملك من ملوك حمير ، فقال له الملك : ثِبْ ، فوثب الرجل فتكسّر ، فقال الملك : ليس عندنا عربيـــتْ (1) ، من دخل ظَفار حمّـــر . (2)

فوثب فلان طفر أي قفز وثار وغضب وبطش ونهض إلى الأمر .وكلّ ما جعلك تثــب أو تنهض إلى أمر أو تثور وتغضب بسرعة فقد وثّبك ، فهو موثّب ، وضدّ الوثب النكوص وهـــو الرجوع إلى الخلف والإحجام عن الأمـــر .

والأدب موثّب كذلك إذا دفعك إلى التقدّم نحو أمر ما والنّهوض إليه وعدم الإحجام عنه ، وذلك بما يحمله من خطاب مباشر مما يستوجب الإجابة لمنشئه ، سواء كان ذلك الخطاب يتضمنُ الاستغاثة أو طلب النصرة وغير ذلـــك .

(1) عربيّت : يريد العربيّة، فوقف على الهاء والتاء ، وكذلك لغتهم. وقوله حمّر بشدّ الميم أي تكلّم بالحميريــة .

(2) أنظر : لسان العرب والصحاح والقاموس المحيـــط ــ وثـــب .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

نشأة الموثبات ومفهومها الأدبـــيّ :

لم تكن المرأة في العصر الجاهلي بعيدةً عن أحداث مجتمعها ، فكانت تخرج مـــع المقاتلين إلى ساحة المعركة عندما تدقّ طبول الحرب في قبيلتها ، فتقوم بالسهر على راحتهم وتضميد جراحهم إذا التحموا مع الأعداء ، وتشاركهم في القتال إذا دعت الضرورة لذلـــك . وكان قومها يصطحبونها معهم ، حتى لا يفرّوا[1] ، فقد رُوي أنّ قبائل اليمن اصطحبت النساء والذراريّ ، حتى لا يفرّوا يوم نيف الريـــح[2] .

وهي في خروجها مع قومها ، إنّما تحاول بذلك أن ترسّخ مفاهيم البطولة والشجاعـــة والتضحية عندهم ، وتثبت لهم بأنّ الخطب جليل وأنّ الأمر عظيم ، وإلاّ لما خرجت وعرّضـــت حياتها للخطر ، وكان ذلك أفضل لها كثيراً مِنْ أن تبقى في قبيلتها ، فيغير عليها الأعداء ، ويأخذونها مع السبايـــــا .

وكانت المرأة في الجاهلية تؤمّن من يستجير بها إذا اشتدّ الخطب ، ففي يوم عكـــاظ ، وهو اليوم الرابع من أيام الفِجار الآخر ، ضرب مسعود بن معتّب الثقفي على امرأته سبيعة بنـــت عبد شمس بن عبد مناف خباءً وقال لها : مَنْ دخلَهُ مِنْ قريش فهو آمن ، فجعلت توسّع فـــي خبائها ليتّسع ، فقال لها : لا تتجاوزي خباءك ، فأحفظها ... فلما انهزمت قيس ، دخلـــوا خباءها مستجيرين بها ، فأجار لها حرب بن أميّة جيرانها ، وقال لها : يا عمّة من تمســـك بأطناب خبائك ، أو دار حوله فهو آمن ، فنادت بذلك فاستدارت قيس بخبائها حتى كثـــروا جـــدا[3] .

ولعلّنا لا نعدو الصواب إذا قلنا إنّ المرأة في العصر الجاهلي ، لم تكن أقـــلّ حماسة وأهمّية من الرجل في الحرب ، فكانت تتعدّى كونها أنثى ، وهي فضلا عما تقوم به مـــن السهر على راحة الفرسان ، وتضميد جراحهم ، تُعدّ منجبة الرجال ، ورمز عزّة القبيلة وشرفهـــا ورفعة شأنهـــــا !

---

(١) انظر: الشعر وأيام العرب في العصر الجاهلـــي ، ص: ٩٣ .
(٢) انظر: الكامل في التاريخ ، ابن الأثير ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، الطبعة السادسة، ١٩٨٦ ، ١/ ٣٨٧ .
(٣) انظر: الأغانـــي ، ٢٢/ ٧٣ ، ٧٤ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وقد كان لها في الحرب دورٌ كبير في التأثير في قومها ، فكانت تتابع سير المعارك بينهم وبين خصومهم ، وتشاركهم بوجدانها في مصيرهم ، فإذا ما رأت منهم تراجعاً وتخاذلاً ، سارعت إلى تحذيرهم من خطر الأعداء ، خوفاً مِنْ أنْ تلحق الهزيمةُ بهم ، وتحريضهم على قتال الأعداء للخلاص من سيطرتهم ، وإذا استحسنت صنيعهم اطمأنّت نفسها ، وزادها ذلك تصميما على النصر . وكانت تخاطبهم بأسلوب يعينها على تحقيق غايتها ، فتستخدم الترهيب بما تظهره لهم من رفضها للجبن والتخاذل ، والترغيب بما تحبّبه إلى نفوسهم من حياة مشرقة ، محفوفة ببذل التضحيات وتسجيل الانتصارات !

وهي تحرص كذلك على إبقاء جذوة حماسهم متوقّدة ، عندما يشتد القتال ، فكانت تهبّ صارخة في وجوههم ، إذا استبدّ بهم اليأس ، وأحجموا عن القتال ، أو فرّوا من المعركة ، مسلمين نساءهم للأعداء يأسروهنّ . وهنا تترجم المرأة الشاعرة استصراخها لقومها ، في حالة شعورها بالخطر يهدد أمن قبيلتها واستقرارها ، على نمط أبيات تسمى "الموثبات".

فالموثّبات هي القصائد التي كانت النساء تقولها لإثارة المقاتلين واستنهاض هممهم وشحذها وتحريضهم على القتال تجديداً لعزائمهم وبعثاً لروح القتال فيهم للمضيّ نحو النصر . وهي تستخدم في مخاطبتها لهم ما يلهب حماسهم ، فيهبّ قومها جميعهم لتلبية ندائها ، وقد تضمّنت الموثّبات معاني إثارة حميّة القوم ؛ وذلك عن طريق الإكثار من ترديد كلمات الشرف والكرامة والإباء والعزّة والذلّ والخزي والعار !

إنّ شواعر الموثّبات كُنّ يستندن في توثيب المقاتلين ، إلى إيمانهنّ بكرامتهنّ وعزّتهن وعزّة قبيلتهنّ ، وأنّ لا أمل يرجى في حياة ذليلة ، فإمّا حياة كريمة ، وإمّا الموت تحت ظلال السيوف بشرف وعزّة ! وكأنّه كان يستهويهنّ وهن ينشدن تلك القطع الحماسيّة ، موقف العزّة والأنفة والكبرياء ، الذي وقفه عنترة العبسي في قوله :

لا تسقني ماء الحياة بذلّة بل فاسقني بالعزّ كأس الحنظل

وحِرْصاً من هؤلاء الشواعر على حياة كريمة ، كُنّ يستصرخن الرجال ويرفعن أصواتهنّ عالياً ، استهجانا لمواقف التخاذل والضعف والتنصّل عن المشاركة في القتال ، وتنفيسا عمّا يتعمّقهنّ من الشعور بحقّهنّ الضائع في السيادة والزعامة ؛ لأنه إنْ هُزِمَ قومها أو فلّوا ، وقعن سبايا في أيدي الأعداء !

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وقد استخدمت الموثّبات في الجاهلية بكثرة ، واستطاعت شواعر العرب أن يقدّمن مجموعات رائعة من هذا الفن الحربي ، وأنْ يَفْتَحْنَ بذلك آفاقاً جديدة رحبة في شعر الحرب .

ففي يوم ذي قار نرى امرأةً من بني عجل ثابتةً في أرض المعركة ، تقاتل الفرس مع قومها ، وقد عرفت بفطرتها السليمة وإحساسها الصادق خطورة الموقف ، فسارعت إلى قومها تطلب النصرة والعون منهم ، وتنشد (١) :

إن يظفروا يُحَزِّزُوا فينا الغُرلْ   إيهٍ فِدىً أبي لكم بني عِجِلْ

ومن الموثّبات ما قالته هند بنت النعمان بن المنذر ، وتلقّب بالحُرَقة ، وكان كسرى ملك الفرس قد طلبها للزواج ، فرفض أبوها أنْ يزوّجها منه لأنّه أعجميّ ، فغضب كسرى وسجنه ثم فتك به ، وهربت هند . ولما بلغها أنّ كسرى قد عزم على القتال وأرسل جيوشه الجرّارة إلى قبيلتها بكر بن وائل لمحاربتهم ، أرسلتْ تعلمهم بقدوم الفرس إليهم ، وتحذّرهم من خطرهم ، ثم قالت أبياتاً ، تتحسّر فيها لفقد أبيها وزوال ملكه ، وتتأسّف على خمود همّة العرب ، وتنعى على قومها جبنهم وتخاذلهم أمام كسرى (٢) :

لم يَبْقَ في كلّ القبائل مَطْمَعٌ   لي في الجوار فَقَتْلُ نفسيَ أَعْوَدُ
ما كنتُ أحسب والحوادث جَمّةٌ   أنّي أموتُ ولم يَعُدْني العُوَّد
حتى رأيتُ على جَرايةِ مولدي   مُلْكاً يزول وشَمْلُهُ يَتَبدَّدُ
فَدُهِيتُ بالنّعمانِ أعظمَ دَهْيَةٍ   ورَجَعْتُ من بعد السَّمَيْذَعِ أُطْرَدُ
وغَشِيتُ كلّ العربِ حتى لم أجِدْ   ذا مِرّةٍ حَسَنَ الحفيظةِ يُوجَدُ (٣)
ورجعتُ في إضمار نفسي كي أمُتْ   عطشاً وجُوعاً حَرّهُ يتوقّدُ
موتي بعيد أبيكِ كيف حياتُنا   والموتُ قَبْوَ لكلّ حَيّ مُرْصَدُ
يا نَفْسُ موتي حَسْرةً واستيقِني   سيضمّ جِسْمَك بعدِ ذاك المُلْحَدُ
خاب الرّجا ذهب العزاقلّ الوفا   لا السهلُ سَهْلٌ ولا نُجودٌ أنْجُدُ
جمدتْ عيونُ الناسِ من عَبَراتِها   وقلوبهمْ صُمٌّ صِلادٌ جَلْمَدُ
لا يرحمونَ يتيمةً محزونةً   مقتولةَ الآباءِ نِضْواً تُطْرَدُ

---

(١) نقائض جرير والفرزدق ، أبو عبيدة معمر بن المثنى ، بيفان ، طبع في مدينة ليدن المحروسه بمطبعة بريل ، ١٩٠٥ ، ٢/٦٤١ .
(٢) شاعرات العرب في الجاهلية والإسلام ، جمعه ورتّبه ووقف على طبعه بشير يموت ، المكتبة الأهليّة ، بيروت ، الطبعة الأولى ، ١٩٣٤ ، ص: ٢١ ، ٢٢ .
(٣) ذا مِرّة : ذا قوّة .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

تبغي الجوارَ فلا تُجارُ وقبْلَ ذا … كان المُنادي للجوارِ يُسَوَّدُ
فالموتُ فيه فُرْجَةٌ فتأيَّدي … ليس المفزَّعُ قلبُه يتأيَّدُ (١)
أُفٍّ لدَهْرٍ لا يدومُ سرورُه … ولخِصْبِ عَيْشٍ غُصَّةٌ يتنكَّدُ
ما الدهرُ إلاّ مثلُ ظِلٍّ زائلٍ … وبدورِ شَمْسٍ فارقَتْها الأسعُدُ
وصروفُ هذا الدهر أعظمُ مَطْلباً … للأعظمين هلاكُهمْ يتوددُ
أفهلْ رأيتمُ أسْفَلاً يفنى كما … يَفْنى الأعالي الأسْمَحُونَ السُّؤدَدُ
لا ما أظنُّ وللزمانِ بَقيَّةٌ … ووضيعُ قومٍ في الدُّنا لا يُنْجَدُ
قومي تهيَّئوا للممات فإنه … أولى بذي حُزْنٍ إذا لا يُسْعَدُ

فأجارتها صفيّة بنت ثعلبة الشيبانيّة ، وحارب قومها جيوش كسرى وهزموهم ، فاستجمع كسرى قوّته ، وجعل نفسه قائداً على جيوشه وغزاهم . فلما اشتدّ القتال بين العرب والفرس ، نَصّب عمرو بن ثعلبه الشيباني نفسه رئيساً على قومه ، فبرزت الحرقة له وكشفت عن وجهها ، وأنشدت مرتجلة أبياتا ، تحضّه فيها على الدفاع عنها ، وبذل التضحيات رخيصةً في سبيل صون شرفها ، بأسنّة الرماح ، وظبات السيوف ، وسوابق الخيل ، وتستنكر عليه أنْ يضيّع ما توارثه ، من شجاعة وصبر ، ووفاء شديد ، وعزيمة ماضية ، ومجد رفيع (٢) :

حافِظْ على الحَسَبِ النَّفيسِ الأرفعِ … بمُدَجَّجينَ مع الرِّماح الشُّرَّعِ
وصوارمٍ هنديَّةٍ مصقولةٍ … بسواعدٍ موصولةٍ لم تُمْنَعِ
وسلاهبٍ من خَيْلِكُمْ معروفةٍ … بالسَّبْقِ عاديةٍ بكلِّ سَمَيْذَعِ
واليومُ يومُ الفصلِ منكَ ومِنْهُمُ … فاصبِرْ لكلِّ شديدةٍ لم تُدْفَعِ
يا عمرو يا عمرو الكِفاحَ لدى الوَغى … يا ليثَ غابٍ في اجتماعِ المَجْمَعِ
أظْهِرْ وفاءً يا فتىً وعزيمةً … أتضيعُ مجداً كان غيرَ مُضيَّعِ

ومن شواعر العرب صفيّة بنت ثعلبة الشيبانيّة ، وتلقّب بالحُجَيْجَة ، وهي ممّن حفظت لها كتب الأدب الكثيرَ من الموثّبات ، ومن ذلك ما قالته يوم ذي قار ، عندما استجارت بها الحرقة ، فأجارتها ، وقامت إلى قومها تعلمهم هذه الإجارة ضد كسرى وجيوشه ، وتحذّرهم من القعود عن القتال والإحجام عنه ، وتوكّد لهم أنّ حماية الجار وإغاثته واجبٌ عليهم ، ومِنْ

---

(١) الفَرْجَة : الراحة من حزن أو مرض .
(٢) شاعرات العرب في الجاهلية والإسلام ، ص: ٢٣ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أجل التأثير فيهم تُموّل لهم خطر الفرس، وتظهر خوفها منهم ، مقررةً أنّ قومها محلّ ثقتها ومصدرُ أمنها ، ولذلك تسبغ عليهم من المآثر والسجايا ، ما يُجدّد عزائمهم ويرفع معنوياتهم[(١)]:

أحيوا الجوارَ فقد أماتتْهُ معـــاً   كلُّ الاعاربِ يا بني شَيْبـــانِ
ما العُذْرُ قد لفّتْ ثيابي حُـــرَّةٌ   مغروسةٌ في الـدُّرِّ والمرجـــانِ
بنتُ الملوكِ ذوي الممالكِ والعُلى   ذاتُ الحِجَالِ وصفوةُ النُّعمـــانِ
أتهـا تَفُون وتَشْحَذُونَ سيوفكـــمْ   وُتقوّمون ذوابلَ المُـــرّانِ
وتُسوِّمون جنودكمْ يا مَعْشَـــري   وتُجـدِّدونَ حقيبةَ الأبْـــدانِ
وعلى الأكاسرِ قد أجَرْتُ لحُـــرَّةٍ   بكهـول معشرنا وبالشُّبـــانِ
شَيْبانُ قومي هل قبيلٌ مِثْلُهُـــمْ   عند الكفاح وكَرّةِ الفُرســـانِ
لا والذوائبِ من فروعِ ربيعـــةٍ   ما مثلهمْ في نائبِ الحَدَثـــان
قومٌ يجيرون اللهيفَ من العِـــدا   ويحاط عمري من صروف زمانـــي
تَرِدُ الهياجَ بنو أبي لا تتّقـــي   مَشْطَى العدوّ وصولةَ الاقـــرانِ[(٢)]
إنّي حجيجةُ وائلٍ وبوائـــلٍ   ينجو الطريدُ بشَطْبَةٍ وحصـــانِ
يا آل شيبان ظفرتم في الدنـــا   بالفخر والمعروف والإحســـانِ

فقام بنو شيبان بإجارتها ، وحاربوا الفرس، وهزموهم هزيمة منكرة ، وغَنِموا مغانـــم عظيمة . ولكنها ما تلبث أن تُحِسّ بخطرهم يهدّد قومها مرة أخرى ، عندما أرسل المنصـــور — وهو أحد قوّاد كسرى — رسولين إلى بني شيبان ، يطلب منهم أن تنزل الحرقة على طاعتـــه، وأن يكفّ عن محاربتهم إنْ تخلّوا له عنها ، فلقيا الحجيجة فرفضت ، فحاربهم المنصـــور فهزموه ، ثم رجع إلى كسرى ، فأمدّه بعشرين ألف مقاتل عربي ، في كامل عدّتهم واستعدادهـم، فلما علمت الحجيجة بأمرهم ، أنشدت أبياتاً ، تحرّض فيها قومها أن يهبّوا لنجدتها وقد جاءهم أعداؤهم فوق ظهور جياد أصيلة ، يمشون في كبر وخيلاء ، ويحملون أجود أنواع الســـلاح ! وهي في الوقت نفسه ، تُعلي من شأن قومها ، وتفاخر بهم كلّ العرب ، وتستصرخهم فـــرداً فرداً ، وتستنكر عليهم أن يقصّروا في الدفاع عن الحق والواجـــب[(٣)] :

---

(١) شاعرات العرب في الجاهلية والإســـلام: ص١١٠
(٢) المَشْطى : الضرب بالسياط ، وهي هنا في الحـــرب.
(٣) شاعرات العـــرب ، ص: ١١٣ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ماذا أحاذرُ من عشرينَ يقدُمُهم ... منصورُ في حَيِّ غسّانٍ على نُجُبِ
من الجيادِ عليها الحيُّ مِنْ يَمَنٍ ... والعُجْمُ تَرْفُلُ في الماذيِّ واليَلَبِ (١)
وعندي الأُفْقَمُ الهَمّاسُ في فئةٍ ... منهمْ ظَليمٌ وعمّارُ بن ذي كَرِبِ
وعُقْبَةٌ وعَبادٌ والرّبيعُ إلى ... ذي العزّةِ الفارسِ الحمّالِ بالكُتُبِ
والصلتُ مع سالمٍ والمالكانِ معاً ... ومسلمٌ بعد بكرِ الفارسِ الأَرِبِ
ونافعٌ وعُمَيْرٌ والمروحُ في ... فرسانِ شَيْبانَ لا ميلٍ ولا غُضُبِ
والأحْوصانِ وأعواقٌ وأَحْسَبُهُم ... وابن المسيّبِ من ذي الخيل بالقُضُبِ
يا عمروُ عمرو أَجِبْني يا ابن ثعلبةٍ ... يا شِبْهَ برّاقَ يوم القَتْلِ والسَّلَبِ
لأجْلِ عشرينَ ألفاً أضْحِ صارخةً ... في آل بكرٍ وذا شيءٌ من العَجَبِ
لا تكشفوني بهذا اليوم وارتقِبوا ... يومي لوقتِ اجتماع العُجْمِ والعَرَبِ

فهبّ قومها ، واستعدّوا لملاقاة كتائب الأعداء المجتمعة ، والتحموا معهم ، فهُزم المنصور ، وتفرّقت جنوده ، وعاد إلى كسرى خائباً !

وجدّد كسرى إرسال قوّاته ، ولكنّ الطميح — وهو أحد قوّاد كسرى — أرسل سِرّاً إلى بني شيبان يخبرهم بذلك ؛ لأنّه كان يَعِزُّ عليه أن يهدر كسرى دماء قومه العرب ، فقالت صفيّة لقومها أبياتاً ، تشجّعهم فيها على الثبات والصبر في ملاقاة أعدائهم . وهي تقرّر أنهم أهلٌ للصبر والحفاظ على شرف القبيلة وعِزّتها ، وتهدّدهم إنْ لم يستجيبوا إليها ويستقيموا ويصبروا ، فإنها ستستجير بقبائل غيرهم أقوى وأعزّ ! (٢) :

ماذا تَرَوْنَ بني بكرٍ فقد نزلتْ ... كِبْرُ الذّوائبِ والأخرى على الأثَرِ
أتصبرون لشعواءَ مُلَمْلَمةٍ ... فيها الأعاجمُ بالنُّشّابِ والوَتَرِ
أم لَسْتُمُ أهلَ صَبْرٍ في لوازمها ... عند الحفائظِ والجاراتِ والخَفَرِ
إنّي أَجَرْتُ بكم يا قومُ فاصطبروا ... فالصبرُ يحللُ فوق الأنْجُمِ الزُّهُرِ
إيهاً أجيبوا بني بكرٍ حُجَيْجَتكُمْ ... ما عندكم ويحكمْ من غايةِ الخَبَرِ
يا أيُّها الشُّمُّ أنتمْ حافظو ذِمَمي ... وأنتمُ فلعمري العزُّ من عُصُري
إمّا صَبَرْتُمْ فلا أدعو لغيرِكُمُ ... وإنْ جَزِعْتُمْ أُنادي كُلَّ ذي حُضُرِ

---

(١) رَفَلَ في مشيه أو في قيوده : أطاله وجَرّه متبختراً . الماذيّ : خالص الحديد وجيّده ، اليَلَب : الفولاذ من الحديد .
(٢) شاعرات العرب ، ص : ١٥ ، ١٦ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

بكلّ سامٍ إلى الهيجاء ذي شَرَفٍ   واري الزّنادِ كريمِ الجَدِّ من مُضَرِ
ذي مِرّةٍ لا يخافُ الجندَ إن كَثُروا   في سادةٍ قادةٍ معروفةٍ صُبُرِ

فأجابها قومها واستعدّوا لملاقاتهم ، فلما قَدِموا أقبلت صفيّة على قومها ، تحرضهم وتشجعهم فرقة فرقة ، وقبيلة قبيلة ، فخاطبت بني حنيفة بقولها (١) :

إيهاً أجيدوا الضرب يا حنيفَهْ   فأنتم الجمجمة الشّريفَهْ
أهل اللِّقَا والعمدة المعروفَهْ   والعُدّة المنسوجةُ الموصوفَهْ
حامي على أعراضِكِ النظيفَهْ   الطاهراتِ ويحكِ العفيفَهْ
إنّ الجنود حولكم كثيفَهْ   فلا تَهَلْكُمْ وتَزْدكِمْ خيفَهْ

وأقبلت الى بني ذهل ، وأنشأت تقول فيهم أبياتا ، تحفّزهم فيها على القتال ، وترغّبهم في الدخول إلى أرض المعركة تحت غبارها القاتم ، وهي تؤكّد لهم إنْ صبروا ، فالنصر والعزّ حليفهم (٢) :

اليومَ يومُ العزّ لا يومُ النَدَمْ   يومُ رماحٍ وجيادٍ وخَدَمْ
يومٌ به الأرواحُ جهراً تُصْطَلَمْ   سوف ترى البيضَ غداة المُبْتَسَمْ
للوائليّاتِ التي تحمي البهَمْ   يا آل بكرٍ لا تَهَلْكُمُ العَجَمْ
من الذي يحمي الخيام والنّعَمْ   ومن يطاعِنُ تحت سِرْبالِ القَتَمْ (٣)
إن صبرتْ ذُهْلٌ فعِزّي اليوم تَمْ

ثمّ جاءت إلى بني شيبان ، فسارت وهي تنشد أبياتاً ، وهم من خلفها ، تحثّهم على الاستمرار في القتال ، بما تبعثه فيهم من معاني الشرف والعزّة والانفة ، وأنّه يجب عليهم أن يقاتلوا بكلّ سلاح ، وأنْ يستميتوا في الدفاع عن شرف القبيلة وعزّتها (٤) :

إيهاً بني شيبانَ صفّاً بعد صَفْ   من يُردِ العلياءَ لم يَخْشَ التّلَفْ
من حاذر الموت تنحّى ووقَفْ   إنّ الشجاعَ باسلٌ فيه الصّلَفْ (٥)

---

(١) شاعرات العرب ، ص : ١٦ .
(٢) المصدر نفسه ، ص : ١٧ .
(٣) السِّربال : القميص ، وهو هنا الغطاء . القَتَم : الغبار الأسود ، وإنما جعل له سربالا لشدّة سواده . يقال ارتفع القتام حتى خفيت الأعلام .
(٤) شاعرات العرب ، ص : ١٧ ، ١٨ .
(٥) الصلف : الشدّة والقدرة .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

إنْ تُقبِلُوا نَظْفَرْ ونَحْذَرْ ونَخَفْ وفي الفِرار يولجوا فينا الأكُفْ
اليوم يومُ العزِّ موصوف الشَّرفْ إن حافظتْ قومي فما بي من أسَفْ
أنا ابنة العِزِّ وعرضي اليوم عَفْ بكلِّ نَصْلٍ كالشِّهاب المختطفْ (١)
نخطِفُ قوماً قد عفوْنا بسَرَفْ

وحمل العرب على جيوش كسرى ، ولكنّ الفرس تكاثروا عليهم ، حتى كادوا ينهزمون ، فقامت صفيّة تقطّع الحبال ، فسقطت النساء عن الجمال ، ورأى رجالهنّ ذلك ، فهجموا على الأعداء هجوما قويًّا ، وصاحت صفيّة بأعلى صوتها تنادي أخاها (٢) :

يا عمروُ يا عمرو الفتى بن ثعلبهْ حامِ على جارتك المُسْتَقرِبَهْ
وزاحمِ العُجْمانَ عند العقبهْ

فحمل أخوها وقومها عليهم حملة قوية ، ولكنّ كثرة الفرس كادت أن تفنيهم ، وإذا ببني يشكر وعليهم ظليم بن الحارث ، قد جاؤوا مدداً لقومهم ضد كسرى . فأيقنت صفيّة عند ذلك بالنصر ، وقالت لقومها أبياتاً ، تبشّرهم فيها بدنوّ النصر لاقتراب ذلك المدد في كامل عدّتهم واستعدادهم ، عليهم فارس يتربّص الأعداء كالليث في غابته (٣) :

هذا ظليمٌ جاءكم في يشكُرِ بالقُبِّ والمُرَّانِ والسنَّورِ (٤)
كليثِ غاباتٍ هَمُوسٍ مُخْدِرِ يا فارساً تحت العجاج الأكْدَرِ (٥)
هذا ظليمٌ من كِرامٍ مَعْشَرِ احملْ هديتَ حملةَ المُنْتَصِرِ

ثم قالت تحضّ ظليماً أن يحمل على الأعداء ، وتشجّعه بأنّه سيلاقي أخاها في ساحة المعركة . وهي تعلّق آمالها وغايتها عليه ، لما تتوخّاه فيه من قوّة نفس ورباطة جأش (٦) :

احملْ ظليمُ في العجاجِ الأسْودِ ففيه عمرو كالهِزَبْرِ الأرْبدِ (٧)

---

(١) النّصل : حديدة الرمح والسهم والسكين .
(٢) شاعرات العرب ، ص: ١٨ .
(٣) المصدر نفسه : ١٨ .
(٤) القبّ : أصلها أقبّ ، واحدتها قبّ ، وهو الفحل من الناس والابل . المُرّان : الرماح الصلبة اللدنة ، واحدتها مرّانة . السنّور: لبوس من سير يلبس في الحرب كالدروع .
(٥) العجاج الأكدر: الغبار العكر الذى تثيره سنابك الخيل .
(٦) شاعرات العرب ، ص ١٨ ، ١٩ .
(٧) الأربد : الذي لونه مربدّ أي رمادي ، ويقال اربدّ وجهه : احمرّ حمرة فيها سواد عند الغضب

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

يضربُ بالمشطّب المهنـــــدِ بساعدٍ ذي نَجْدَةٍ مُؤيّـــــدِ (١)
أدركْ فأنت غايةُ المُسْتَنْجِـــدِ واعْدُ على القوم كعدو الأسـدِ
بذي جَنانٍ كالصفاةِ الأصْلَـــدِ باليشكريّينَ كرامِ المَحْتَـــدِ (٢)

فهجم اليشكريّون ، وفرّجوا عن بني شيبان ، واشتدّ القتال ثم افترق الجمعان ، وفي اليوم الثاني اجتمعت صفيّة بالطميح سرّاً ، فقالت تحرّضه على خذلان كسرى ، وتذكّره بأنّ عونه ونصره لها شرفٌ وفخرٌ للعرب كلّهم ، وعطفٌ على أبناء عمومتـــه (٣) :

ليس للعُجْمِ نُصْرَةٌ في عَشِيـــري إنْ أراد الطميحُ نَجْلَ الكِـــرامِ
إنْ تولّتْ لنا إيادٌ انهزامـــا كان منهم هزيمةُ الأعْجـــامِ
وملكنا العُلوَّ والفخرَ طَـــولَ الدهرِ حتى وآخرَ الأيـــامِ
إنّ نصرَ الطّميْحِ أكرمُ نصـــرٍ وحُنوٌّ على بني الأعمـــامِ

فأثّرت كلماتها في نفسه ، فنزل للقتال ، وكان الجمعان يلتقيان ثم يفترقان ، وبعد أيام جاءت صفيّة بالحُرَقَة ، وطلبت منها أن تكون بجانبها ، وانتدبت فرسان قومها ، وجعلتْ عليهم أخاها عمراً ، وأنشأت تقول لهـــم (٤) :

يا عمرو يا مَنْ قد أجار الحُرَقَـــهْ يا رأس شيبانَ الكُماةِ المُعْرِقَـــهْ
يا فارسَ العاديةِ المُحَقّقَـــهْ اليومَ يومٌ ما العيونُ أرِقَـــهْ (٥)
إذا رأتْ فيه دماءً مُهْرَقَـــهْ والعُجْمُ صَرْعى جَمْعُهُمْ مُفْتَرِقَـــهْ
مقتولةٌ تَنْفُرُ شتّى قِلَقَـــهْ أدْرِكْ شباباً فهو اليوم الثِّقَـــهْ
أكرمُ خيلي من سَعى أو لَحِقَـــهْ

فاقتتلوا قتالاً شديداً ، وهزم الفرس ، وقُتِلَ أولاد كسرى ، وانتصف العرب منهم وغنموا غنائم كثيـــرة !

---

(١) المُشَطَّب : شُطَب السيف : الخيوط تتراءى في متنه ، الواحدة شطبــة .
(٢) الجَنان : النفس والقلب . الصفاة : الحجر العريض الأملس ، لا يناله أحد بســوء لقوته ، وقد وردت في الأصل "الصفاء" ، ولا أراها تناسب السياق . الأصلد : شديد الصلابـــة .
(٣) شاعرات العـــرب ، ص : ١٩ .
(٤) المصدر نفســه ، ص : ١٩ .
(٥) العادية المحققة : الكتيبة الهاجمـــة .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وللأبيات أهمّيّةٌ تاريخيّة كبيرة ، لأنّها تكشف عن صراع العرب مع الفرس ، وتقدّم في ذلك تقريراً مفصّلاً عن سير العمليّات الحربيّة بينهما ونتائجها ، كما تذكر أسماء بعض مشاهير العرب ، رجالهم ونسائهم ، مما أغفلته كتب التاريخ ، فضلاً عن كونها مصدراً من مصادر شعر النساء .

وهي تكشف كذلك كشفاً دقيقاً عن تحالف العرب في هذه الفترة الفاصلة في تاريخهم ، لاتّفاق مصالحهم المختلفة ، ولأنها تُبيّن عن معاداتهم جميعا للفرس ، وتُفْصِح عن آمالهم الكبيرة في السيادة والزعامة .

والأبيات توضّح ما كانت الشاعرة تُحِسُّ به من الخوف والقلق على مصيرها ، وما كان يَحْمُرُها من الشعور بالأنفة والعزّة والشموخ والكبرياء ، وما يعتريها من السُّخط والضيق بحال قومها . وما يزال ذلك يُؤرّقها فيدفعها ، في كل قطعة تنشدها ، إلى تصوير خطر الفرس وتعاظمهم ، فهي لا تفتأ تذكر قومها وتستصرخهم كلّما أحدق الخطر بها ، ولا تكفّ عن الشكوى من مضايقة الفرس لها ولجارتها والمصائب تنزل بقومها واحدةً في إثر الأخرى ! ويدفعها ذلك أيضا إلى التغنّي بقومها ، وتخليد مآثرهم وتمجيد بطولاتهم ، في كفاحهم الدامي المرير الذي عُرِفَ عنهم على مرّ السنين ، لعلّهم يحاربوا الفرس ويكسروا شوكتهم ويستأصلوا شأفتهم ، فيرفعوا عن العرب هيمنتهم وغطرستهم وتكبّرهم .

والشاعرة إذْ يتملّكها الفزع على مصيرها ، ويركبها الزهو والخُيَلاء عندما تدافع عن سيادتها وحرّيتها ، نراها تحرص حرصاً شديداً على استزادة قومها في القتال ، فترفع من معنوياتهم بعد يأسٍ دبّ في نفوسهم ، وتلمّ أشتاتهم بعد تفرّق في صفوفهم ، وهي تعرض لهم في ذلك أروع صور التضحية والبطولة والفداء ! مقلّلةً من شأن الحياة المترّعة بالذُّل والعار ، ومؤكّدة أنّ المرأة غايةٌ شرف العربيّ وعِرْضه الذي يجب أن يصان ، وتتطلّع فيهم وهي ترى في المعركة أرواحاً تُخْتَطَف ، إلى غدٍ مُشْرِق ونَصْرٍ مؤكّد .

ومن الموثّبات ما قالته "زرقاءُ اليَمامة" واسمها عَنْز ، وكان يُضرب بها المثل في حدّة البصر ، فكانت تنذر قومها كلّما شنّت عليهم غارة ، فلا تغزوهم قبيلةٌ إلاّ واستعدّوا لها ، فعلم بحقيقة أمرها حَسّان بن تُبّع الحِمْيَريّ ، وكان يفكّر في غزو قومها ، فأمر أصحابه أنْ يقطعوا شجراً فيحملونه ويختبئون وراءه ليتستّروا به ، فلمّا أصبحوا على مقربةٍ من قومها ، رأتْهم زرقاءُ

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

اليمامة ، فعلمت بحيلتهم ، وقالت أبياتاً ، تنذرهم فيها من مباغتة الأعداء لهم ، وتحذرهم من التهاون في محاربتهم ، وهي مع ذلك تذهب عنهم خوفهم وهيبتهم من كثرة الأعداء وعدتهم (١) :

خُذوا حِذاركمُ يا قومِ يَنْفَعْكُمْ	فليس ما قد أرى بالأمر يُحْتَقَرُ
إنّي أرى شجراً من خلفها بَشَرُ	وكيف تَجْتَمِعُ الأشجارُ والبَشَرُ
ثوروا بأجْمَعِكمْ في وجه أولهم	فإنّ ذلك منكمْ فاعلموا ظفرُ
ضُمّوا طوائفكم من قَبْلِ داهيةٍ	من الأمور التي تُخْشَى وتُنْتَظَرُ
فقد زَجَرْتُ سنيحَ القومِ باكرةً	لو كان يعلمُ ذاك القومُ إذْ بكروا
إنّي أرى رجلاً في كفه كَتِفٌ	أو يَخْصِفُ النَّعْلَ خَصْفاً ليس يعتسِرُ
فَغَوِّروا كلّ ماءٍ قبل ثالثةٍ	فليس من بَعْدِهِ وِرْدٌ ولا صَدَرُ
وعاجلوا القومَ عند الليل إذْ رَقَدُوا	ولا تخافوا لهم حرباً وإنْ كثروا
وغَوِّروا كلّ ماءٍ دون منزلهِمْ	فليس مِنْ دونه نَحْسٌ ولا ضَرَرُ

ولكنّ قومها لم يستجيبوا لها ولم يستعدّوا للقتال ، ففاجأهم حسّان في قومه ، وغزاهم في عُقْر دارهم ، فهُزِموا ، وقتلت زرقاء وقُلعت عيناها .

ومن الموثّبات التي اشتهرت ، وذاع ذكرها في الأدب العربي ، مقطوعة كرمة بنت ضلع ، وهي أمّ مالك بن زيد فارس بكر ، فيُروى أنّها كانت تُهيّج الرجال في الحرب ، منشدةً مع النساء (٢) :

نحنُ بناتُ طارِقْ	نمشي على النَّمارِقْ (٣)
مَشْيَ القُطِيِّ البارِقْ	المِسْكُ في المفارِقْ (٤)
والدّرُّ في المخانِقْ	إن تُقْبِلُوا نُعانِقْ (٥)

(١) شاعرات العرب ، ص: ٧٤ .

(٢) المصدر نفسه ، ص: ٤٢ .

(٣) طارق : الطارق : النجم . وقيل كل نجم طارق لأنّ طلوعه بالليل ، وكلّ ما أتى ليلا فهو طارق . تقول : إنّ أبانا في الشرف والعلوّ كالنجم المضيء ، وقيل أرادت نحن بنات ذي الشرف في الناس كأنه النجم في علوّ قدره (لسان العرب ـ طرق) . النمارق : واحدتها النُّمْرُق ، وهي الوسادة الصغيرة يُتّكأ عليها .

(٤) القَطِيّ : مصغّر القطا ، وهو نوع من اليمام يُؤْثر الحياة في الصحراء ويتّخذ أفحوصه في الارض ، ويطير جماعات ويقطع مساحات شاسعة ، وبيضه مرقّط . البارق : أراد أنّ ريشه لامع

(٥) المَخانِق : جمع مَخْنَقة ، وهي موضع القلادة من الصدر .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أو تُدْبِـــرُوا نفـــــارِقْ فــراقَ غَيْــــرِ وامِـــــقْ
عُـرْسُ المولّـي طالِــــقْ والعـــارُ فيــه لاحِـــقْ

* * *

إنّ عقدَ موازنةٍ بين هذين الاتجاهَيْن في شعر الحرب، المنصفات والموثّبات، أمـــرٌ ضروريّ، لأنّ هذين الاتجاهين يقفان على طرفَيْ نقيض ـ كما تبيَّن لي من الدراسة ـ وأنّ العلاقة جِدُّ قائمةٍ بينهمـــــــا !

وإنّ نظرةً أوليّةً، تُري أنّ الموثّبات تُقال أثناء المعركة، في وقتٍ لم يُحْسَم فيه الظفـــر لأحد الفريقين، عندما تنكشف قبيلة الشاعرة، فعندها تهبّ صارخة في قومها، لتلهب حميّتهم، وتحضّهم على القتال ورَفْضِ الاستكانة، مستخدمةً في ذلك أبياتاً حماسيّة، فتكون الموثّبـــات بذلك عاملاً من عوامل استمرار القتـــــال !

أمّا المنصفات، فتقال في الأغلب الأعمّ عند انتهاء المعركة، وكما أنّ الموثّبات كـــان الغرض منها إلهاب مشاعر القوم، وتحفيزهم للقتال، كان الغرض من المنصفات، رفع معنويـــات الفريقين، وتعويضهما عن الأضرار والخسائر التي لحقت بهما من قَتْلٍ وتدمير، فهي بمثابـــة دعوةٍ إلى السلم، وإخمادٍ لنيران الحرب والأحقاد والأضغان التي أوْغَرت صدور الفريقـــين، لعدم تغلّب أحدهما على الآخـــــــر. وبذلك تكون المنصفات عاملا من عوامل إنهـاء القتال بعد أن أدارت دفّته وحرّكتـــه الموثّبـــــات !

ممّا سبق، نستخلص أنّ الموثّبات كان لها أبلغَ الأثر في إدارة دفة القتال وتحديـــد مصير المعركة، وهي تكشف لنا عن قيمة هذا الشعر، الذي أصبح أداة جديدة من أدوات الحرب.

ومن جهة أخرى، فإنّها تكشف عن دور المرأة في الحرب وتأثيرها في قومها، فالمـــرأة الشاعرة وقد عرفت ـ بما أوتيت من عقل وحكمة ـ مكامن نفوس الرجال ومواطن إثارتهـــــم، كانت تستفزّهم وتوجّههم الوجهة المتحقّقة نحو النصر وهي تستعيد فيهم ما ادّخـــــروا، من مَجْدٍ أزليّ تليد وماضٍ عريـــــــق.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

المقوّمات الموضوعيّة للموثّبات :

تقوم الموثّبات على عناصر موضوعيّة تظهر فيها وتُعْتَبر من ركائزها ، وأهمّ تلك العناصر هي :—

١ . العصبيّة القبليّة :

تعدّ العصبية القبليّة من أهمّ مظاهر الموثبات ومقوّماتها ، والعصبيّة مشتقّة من التعصّب أي التجمّع ، وهي أنْ يدعو الرجل إلى نصرة عصبته ، والتألّب معهم على من يناوئهم ، ظالمين كانوا أو مظلومين[١] .

وتتجلّى العصبية القبليّة ، أقوى ما تتجلّى ، في هذا التماسك الوثيق بين أبناء القبيلة الواحدة ، وتعاونهم في سبيل منفعتها ، ودرء الأذى عنها ، وإيثارهم مصلحة القبيلة على مصالحهم الفرديّة .

ومن مظاهرها أيضا ، اعتزاز القبيلة بسيادتها وحُرّيتها ، وكراهيتها الخضوع لقبيلة أخرى ، أو لسيّد من غير قبيلتها ، أو لسلطان دولةٍ تنزل في جوارها[٢] .

فالشاعرة إنْ كانت تستنجد بقومها ، وتطلب العون منهم عند اشتداد الخطب ، فإنّها تفعل ذلك لما تُحِسّه تجاههم من لُحْمَةٍ قويّة في النسب ، ومصيرٍ مشترك في الهدف ، فنرى العصبيّة القبلية تستشري في نفسها ، وتأخذها أَخْذاً في كل بيت تخاطب فيه قومها ، فتدعوهم إلى التوحّد والتماسك . وانطلاقاً من العصبيّة القبليّة التي تُحِسّ الشاعرة بها عند اقتراب الخطر ودنوّه من قبيلتها ، تسارع إلى توثيب المقاتلين لدفع الخطر الذي يُحْدِق بالقبيلة من كلّ صوب وجانب .

وذلك نراه واضحاً كلّ الوضوح في الأبيات التي قالتها هند بنت النعمان بن المنذر ، وقد آثرت الفَلّ على البقاء في قبيلتها ، كراهيةَ الزواج من ملك الفرس ، فقد رفض والدها أن يُزَوّجها منه فقتله ، والتجأت هي إلى صفيّة بنت ثعلبة الشيبانية فأجارتها ، وقامت هند

---

(١) انظر: لسان العرب ـ عصب .

(٢) انظر: العصبيّة القبلية وأثرها في الشعر الأموي ، الدكتور إحسان النص ، دار الفكر ، دمشق ، الطبعة الثانية ، ١٩٧٣ ، ص: ١١٨ ، ١٢٠ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

تستنجدُ بزعيم بني شيبان للدّفاع عنها وصون شرفها . وتمثّل الأبيات إباءها للضّيم وكراهيتها الخضوع لملك الفرس، إذْ هي بنت ملك العرب، وشرفها يعني شرف العرب وعزّتهم، تقول [١] :

حافِظْ على الحَسَبِ النَّفيسِ الأرْفَعِ بِمُدَجَّجين مع الرِّماح الشُّرَّعِ
وصوارمٍ هنديّةٍ مصقولةٍ بسواعدٍ موصولةٍ لم تُمْنَعِ
وسلاهبٍ من خيلكمْ معروفةٍ بالسَّبْقِ عاديةٍ بكلِّ سَمَيْذَعِ
واليومُ يومُ الفصلِ منكَ ومِنْهُمُ فاصبرْ لكلِّ شديدةٍ لم تُدْفَعِ
يا عمروُ يا عمروُ الكفاحَ لدى الوغى يا ليثَ غابٍ في اجتماعِ المَجْمَعِ
أَظْهِرْ وفاءً يا فتىً وعزيمةً أَتُضِيعُ مجداً كان غيرَ مُضيعِ

ونرى العصبيّة القبليّة تأخذ في نفس زرقاء اليمامة كلّ مأخذ ، وذلك عندما تنذر قومها من مباغتة الأعداء لهم ، وتحذّرهم من التهاون في قتالهم ، وتدفعهم أن يهبّوا في وجوههم .وهي تطلق صرختها الدويّة بقولها [٢] :

ثوروا بأجْمَعِكُمْ في وجه أوّلهمْ فإنّ ذلك منكمُ فاعلموا ظَفَرُ
ضُمّوا طوائفكمْ مِنْ قَبْلِ داهيةٍ من الأمور التي تُخْشَى وتُنْتَظَرُ
وعاجلوا القومَ عند الليلِ إذْ رَقَدوا ولا تخافوا لهم حرباً وإنْ كَثُروا

أما المنصفات فتختفي العصبيّة القبليّة فيها -غير بعض القصائد التي كان أصحابها يذهبون فيها مذهب الفخر -؛ لأنّ في إظهارها دعوةً عريضةً إلى إلهاب مشاعر المقاتلين وإلى استمرار الحرب ، بعد أن هدأت خواطرهم وسكنت نفوسهم وكفّوا عن القتال ، بل إنّ في إنصافهم صهراً للعصبيّة القبليّة !

---

(١) شاعرات العرب في الجاهليّة والإسلام ، ص: ٢٣ .
(٢) المصدر نفسه ، ص: ٧٤ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

٢ . المآثر والصفات الخلقيّة والتغنّي بالأحساب والأنســـــاب :

يُعدّ ذكر المآثر والصفات الخلقيّة والتغنّي بالأحساب والأنساب ، من عناصر الموثّبـــات ومقوّماتها ، فالشاعرة تُظهر في الموثّبات فخرها بقومها ، وتَذْكُر أنّهم العِزّ المنيع ، والشـــرف الرفيع ، والمَجْتَد النبيل ، وتحاول أنْ تذكرهم بأسمائهم واحداً واحداً ، وتُحفّزهم للقتال بمـــا تصفهم به من سجايا ومحامد قبليّة يعتزّ المجتمع الجاهليّ بها ؛ كأصالة النسب ، ونُبْـــل المَجْتَد ، وكثرة العدد ، والإقدام في القتال ، ونجدة الملهوف ، وإجارة المستغيث ، وإبـــاء الذُّلّ ، ونحو ذلك ، وهي بذلك تُمهّد السبل لهم ، وتُذلّل الصِّعاب أمامهم ، فتشجّعهـــم للفتك بأعدائهم فتكاً ذريعـــــاً .

والشاعرة إذْ تُوثّب قومها للقتال ، تقف مراقبةً للموقف عن كَثَب ، وتتابع سير المعركـــة ووقائعها بدقّة وإمعان ، فتَجدّد فيهم العزيمة ، وتدبّ فيهم النشاط بعد أنْ يكاد الفتـــور يستولي عليهم . وهي تفعل ذلك لما تملكه من إحساسٍ بالمسؤوليّة ، وما تخشاه مِنْ هزيمـــة قومها ، وما تكنّه لهم مِنْ حرصٍ على الوفاء شديـــــد !

ومن الموثّبات التي تتجلّى فيها هذه المعاني تجلّياً كبيراً ، ما قالته صفيّة بنت ثعلبـــة الشيبانيّة يوم ذي قار عندما استجارت بها هند بنت النعمان بن المنذر ، فقامت تعلم قومهـــا هذه الإجارة ضدّ كسرى وجيوشه ، وتحرّضهم لقتالهم . وهي تُضْفي عليهم تلك المآثر والسجايا التي عُرِفَتْ فيهم في أيامهم وحروبهم على مرّ السنين ، وهي الشجاعة والإقدام في القتـــال وإغاثة الملهـــوف [1] :

شيبانُ قومي هل قبيلٌ مثلهـــمْ ... عند الكفاحِ وكَرَّةِ الفُرْســـانِ
لا والذّوائب مِنْ فروعِ ربيعـــةٍ ... ما مثلهمْ في نائبِ الحدثـــانِ
قومٌ يجيرون اللهيفَ من العِـــدا ... ويُحاط عمرى من صروف زمانـــي
تَرِدُ الهياجَ بنو أبي لا تتقـــي ... مسطى العدوِّ وصولةَ الاقْـــرانِ

وإمعاناً في التأثير في قومها ، نراها تفاخر بهم العرب ، وتستصرخهم فرداً فرداً أمـام كتائب الأعداء المدجّجين بالسلاح ، فهي لا تخشاهم ولا تكترث بعددهم وعددها الفرســـان

---

(١) شاعرات العرب في الجاهليّة والإسلام ، ص: ١١ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

المغاوير ، تقـــــول (١) :

ماذا أحاذرُ من عشريةَ يَقْدُمُهُـــــمْ   منصورُ في حيِّ غسّانٍ على نُجُـــبِ
من الجيابرِ عليها الحيُّ من يَمَـــنٍ   والعُجْمُ تَرْفُلُ في الماذيِّ واليَلَـــبِ
وعندى الأفقمَ الهمّاسُ في فئـــةٍ   منهم ظَلِيمٌ وعمّارُ بنُ ذي كَـــرِبِ
وعُقْبَةٌ وعَبّادٌ والربيـــعُ إلـــى   ذي العِزّةِ الفارسِ الحمّالِ بالكُتُـــبِ
والصلتُ مع سالمٍ والمالكانِ معـــا   ومسلمٌ بعد بكرِ الفـــارسِ الأربِ
ونافعٌ وعُمَيْرٌ والمـــروحُ فـــي   فرسانِ شيبانَ لا ميلٍ ولا غُضُـــبِ
والأحْوصانِ وأعوافٌ وأحْسَبُهُـــمْ   وابن المسيّبِ من ذي الخيلِ بالقُضُـــبِ
يا عمرُو عمرو أجِبْني يا ابن ثعلبـــةٍ   يا شِبْهَ بَرّاقَ يوم القَتْلِ والسَّلَـــبِ

ومن المآثر التي تغنّتْ بها وأسبغتها على قومها ؛ أصالة النسب ، ورفْعة الشـــرف ، وإباء الذل ، وذلك كي يستميتوا في الدفاع عن القبيلة ، ويصبروا في ملاقاة الأعْداء ، إذْ خاطبتهم بقولهـــــا (٢) :

يا أيُّها الشُمُّ أنتمْ حافظو ذِمَمِـــي   وأنتم فلعمري العِزُّ من عُمُـــري

هذا عن المآثر والصفات الخلقيّة التي قامت عليها الموثّبات ، وهي تعدّ كذلك أحـــد عناصر المنصفات ، ولكنّ الشاعر في المنصفات لا يخصُّ قومه وحدهم بتلك المآثر والصفات الخلقيــة كما في الموثّبات ، وإنّما يعمد إلى مزجها وإسباغها على قومه وخصومه بالســـواء .

(١) شاعرات العرب في الجاهليّة والإسلام ، ص : ١٣ .
(٢) المصدر نفســـــه ، ص : ١٦ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

السمات الفنّية للموتّبات :

تعدّ لغة الموتّبات لغةً خطابيّةً مباشرة . ونظراً لأنّ هذا الضرب من الشعر ، يتّسم بالسرعة والحركة والاضطراب ، وطبيعة الموقف تتطلّب من الشاعرة سرعةً في القول ، وسرعةً في الإيصال ، وعدم المبالغة والإسراف في الوصف [١] ، إذْ هو وليد لحظته ، فإنّه لم يتح لشواعر الموتّبات ، أنْ يجوّدْن أشعارهنّ وينقّحْنها ؛ لأنّه كان من الصعوبة بمكان ، أنْ يلتفتن إلى الصنعة الفنية . ومن أين يأتيهنّ ذلك الخيال أو تلك الصنعة وهنّ في أرض المعركة ، وسط أصوات الرماح وقعقعة السيوف ؟ !

لذلك كلّه ، جاء هذا الضرب أقرب إلى الارتجال والنظم منه إلى الفنّ الشعريّ ، ونراه يفتقد أبسط ألوان الصورة الشعريّة وهو التشبيه ، وإنْ كنّا لا نعدم بين الفينة والأخرى ورود بعض التشبيهات المألوفة .

إضافةً إلى ذلك ، فإنّ شواعر الموتّبات ، يمكن أنْ نعتبرهنّ صاحبات عقل وحكمة ، ولَسْنَ صاحبات خيال وبيان ، ولذلك أيضا ، فقد جاءت أشعارهن على هذا النحو .

ونستطيع بعد الدراسة ، أن نتبيّن ثلاث سمات رئيسيّة للموتّبات :

١ . شيوع المقطّعات :

تأتي الموتّبات على شكل مقطّعات أكثر من إتيانها على شكل قصائد طوال ؛ لأنّ هذا اللون يتطلّب ـ كما قلنا ـ سرعةً في القول وسرعةً في الإيصال ثم التأثير السريع في الفرسان ، مع عدم المبالغة والإسراف في الوصف بأوجز عبارة . إلاّ أنّ ذلك لا يعني أنّها لا تأتي على شكل قصائد ، فقد كان لنا منها قصائد ، ولكنّها ليست طِوالاً بالقياس إلى باقي الأشعار الجاهليّة .

ويمكن أنْ نُضيف إلى ذلك عاملا آخر ، وهو أنّ الشعر إذا قيل وقت المصيبة والهلع تأثّر بالانفعال النفسيّ ، والموتّبات كذلك ، فإنّه يكون في صورة مقطوعة قصيرة ، لا تكاد تزيد على عشرة أبيات [٢] .

---

(١) انظر: الشعر وأيام العرب في العصر الجاهلي ، ص: ٤٠١ .
(٢) انظر: موسيقى الشعر ، تأليف الدكتور إبراهيم أنيس ، دار القلم ، بيروت ، الطبعة الخامسة ، ١٩٨١ ، ص: ١٧٧ ، ١٧٨ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

٢٠ انتشار الرَّجَز :

نظرا لكون هذا الضرب الشعري يأتي مباشراً وسريعاً ، وأنّ اللقاء عندما يحين بين قوم الشاعرة وأعدائها يزيد انفعالها الداخلي بالحدث ، يجعلها ذلك تستخدم بحر الرجز ، الذي يلائم بحركاته المتتابعة حالتها النفسية ، وبحر الرَّجَز هو أقرب الأبحر من النثر ، ولأنّ جوازات استعماله عند الشعراء كثيرة ، فقد سمّي " حِمار الشعراء "[1] ، ولكنّ ذلك لا يعني أنّه البحر الوحيد الذي استخدمته شواعر الموثّبات ، فقد استخدمن أوزانا أخرى كالطويل والوافر ، ولكنّ الرجز استُخْدِم بكثرة .

٣٠ شعر غنائي :

كانت الموثّبات في جانب منها تُغَنّى أثناء الحرب ، ولا نستطيع أنْ نُعمِّمَ هذه الظاهرة على جميع الأشعار الموثّبات ، ونعرف أنّ الشعر الجاهليّ ارتبط بالغناء ، وكان الشاعر يُغنّي أشعاره ، ولكنّه لم يقف عند هذه الظاهرة البسيطة ، بل أخذ يتعقّد وأخذتْ تظهر فيه الجوقات[2] ، ولعلّ ما يثبت ذلك من بعض الوجوه ، ما رواه الأصفهاني[3] مِنْ أنّ أبا سفيان في غزوة أحد ، قال لأصحاب اللّواء من بني عبد الدار ، يُحرِّضهم بذلك على القتال: يا بني عبد الدار ، إنّكم وليتم لواءنا يوم بدر ، فأصابنا ما قد رأيتم ، وإنّما يُؤتى الناس من قِبَلِ راياتهم ، إذا زالت زالوا ، فإمّا أنْ تكفونا لواءنا ، وإمّا أنْ تخلّوا بيننا وبينه ، فسنكفيكموه ، فهمّوا به وتوعّدوه وقالوا : نحنُ نُسْلِمُ إليك لواءنا ؟ ستعلم غدا إذا التقينا كيف نصنع ، وذلك الذي أراد أبو سفيان ، فلمّا التقى الناس ، ودنا بعضهم من بعض ، قامت هند بنت عُتْبة في النسوة اللواتي معها ، وأخَذْنَ الدّفوفَ يَضْرِبْنَ خلف الرّجال ويحرّضن ، وكانت هند تغنّي في أثناء هذا العزف بمقطوعات ، منها قولها : ـ

إن تقبلوا نُعانِقْ	ونَفْرِش النّمارِقْ
أو تدبروا نُفارِقْ	فراقَ غيرِ وامِقْ

---

(١) انظر: ميزان الذّهب في صناعة شعر العرب ، السيّد أحمد الهاشمي ، دار الكتب العلميّة ، بيروت ، ١٩٧٣ ، ص: ٦٢ ، الحاشية .
(٢) انظر: الغِنى ومذاهبه في الشعر العربي ، ص : ٤٥ .
(٣) انظر: الاغاني ، ١٥/ ١٤٧ ، ١٤٨ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

إنّ الإنصاف في حياة العرب شيء نادر ، خاصةً عندما تقع الحرب فتتفجّر الأحقاد في نفوسهم على قتلاهم ، لأنّ حياة العرب في الجاهلية كانت في صراع دائم مع الطبيعة ومع الإنسان ، ووسط هذا الصراع يُهْمل الانصاف .

وقد مال غالبيّة الشعراء في أشعارهم في العصر الجاهلي وصدر الاسلام والعصر الأموي إلى الهجاء والفخر ، فقد ألِفوا أنْ يعتدّوا بأنفسهم ويعظّموا مناقبَ قومهم ، ويضخّموا مثالب خصومهم ، فابتعدوا بذلك عن العدل والإنصاف . ولذلك كلّه كان شعر الإنصاف قليلاً ، وكانت القصائد المنصفات ظاهرةً أدبيّة متميّزة في الشعر العربي .

وتبرز قيمة القصائد المنصفات في مضمونها ، وليس في عددها ، في ذلك الجهد الأخلاقي المتميّز الذي بذله الفارس الشاعر في أرض المعركة وقد أثخن قومه بالجراح ، وتكدّست قتلاهم ، وشبعتْ ضواري الحيوان وجوارح الطير منهم ، ومع ذلك لم يَنْسَ وهو يشيد ببلائهم في الحرب ، أنْ يعترف لخصومهم بمثل ما اعترف لقومه من الشجاعة ، وما أشاد به من البلاء والقدرة والمقاومة .

ولعل السبب الذي جعل العرب يُسمّون هذه القصائد بالمنصفات ، هو أنّها جُعِلَتْ نصفين بين القائل وعدوّه ، وكانت غالبا ما تقال عندما ينتصفان في القتال ، ويتعادلان في النتيجة .

وقد جاء الإنصاف في الأدب العربيّ نتيجة الحروب الطويلة واشتداد ضراوتها ، التي خاضها العرب في صحرائهم القاسية ، والتي حرص الفارس العربيّ - في الجاهلية وبعد الاسلام - على احترام تقاليد معيّنة التزم بها نحو خصمه ، فلم يتعوّد طعنه وهو مدبر ، ولم يقتله طالما أنّه رضي أن يستأسر له ، وكانوا إذا تكافّوا عن القتال التزم به الطرفان . هذه الأخلاق التي تعلّمها الفارس في حروبه مع أعدائه ، علّمتْهُ أنْ يقدّر خصمه ، وإنْ انتصر عليه بسيفه ، فلا يحاول أنْ ينتصر عليه بلسانه ويرميه بالضعف وينكر شجاعته ، بل نراه يُقدّره ويذكر شجاعته ، لأنّه إنْ ذمه وعابه ، عاب نفسه في أنّه لم يُنازل فارسا ندّا له ، بل نازل فارساً دون قدره ، وفي ذلك منقصةٌ يأنف منها ، ثم هو لا ينسى أنّ الحرب يومٌ له وآخر عليه ، فإنْ هجا خصمه ونكّل به اليوم ، فليس غريبا أنْ يُهْزَمْ أمامه في أيّام أخرى ، فليحرص على إنصاف خصمه اليوم ، لعلّ خصمه نفسه ينصفه غدا .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وينبع الإنصاف في القصائد المنصفات الجاهلية من تقدير الشاعر لخصومه وإكباره لشجاعتهم التي شهدها في مواطن القتال ، فاعترف لهم بما رآه وأنصفهم مثلما أنصف قومه وأشاد بشجاعتهم . أمّا القصائد المنصفات الإسلاميّة والأمويّة ، فإنّ الشاعر يستند في إنصافه لخصومه إلى شخصيّته الاجتماعية السويّة التي لا تميل إلى بخس الناس حقّهم ، والتي صدرت في أصولها عن ربّ العزّة في قوله تعالى من سورة المائدة الآية (٨) : (ولا يجرمنّكم شنآنُ قومٍ على ألاّ تَعْدِلوا اعدلوا هو أقربُ للتقوى واتّقوا الله إنّ الله خبيرٌ بما تعملون) .

ويلاحظ أنّ المنصفات في صدر الاسلام والعصر الأموي امتدادٌ للمنصفات في العصر الجاهليّ ، مع دخول الإسلام الذي أغنى الموضوعات والمعاني التي تناولها شعراء المنصفات في الجاهليّة غنىً كبيراً ، فصبغها بصبغة دينيّة ، وأبرزها في قالب جديد ، فغدت القيم متبلورة تصبّ في إطار الدين .

ويعدّ شعر الإنصاف في الجاهلية أكثر صدقًا منه في العصر الأموي ، وذلك لأنّ السياسة تدخّلت في شعر الحرب في العصر الأموي ، فنرى الشاعر مدفوعًا بولائه لقومه إلى تفضيلهم على خصومهم ، حتى حين ينصفهم ، ونراه يجنح في آخر قصيدته المنصفة لمحاباة قومه والاعتداد بهم ، خوفاً من تعنيف قادته له لإنصافه لخصومه . ونستثني من هذا شعر الخوارج ، الذي ندب أصحابه أنفسهم لغايةٍ أسمى من الغايات الدنيويّة ، فوصفوا أنفسهم وخصومهم على السواء بصدقٍ نابع من إيمانهم بمبادئهم ومثلهم العليا .

والقصائد المنصفات لا تشكّل تيّاراً ضخمًا في التراث العربي من حيث العدد ومن حيث الوجهة الفنية ، فهي لا ترقى إلى مستوى باقي موضوعات الشعر العربي من الناحية الفنية ، لأنّ شعراءها لم يحبّروها أو يصنعوها ، ولم يتناولوا القضايا التي طرحوها بمعمار فنيّ واسع ، فقد قيلت عفو الخاطر والارتجال ، ولم يكن بمقدورهم أن يلتفتوا الى الصنعة الفنية وهم يعبّرون عن تلك القضايا التي تناولوها بشكل بسيط ومباشر ، وقد حرصوا فيها على تصوير المعارك بينهم وبين خصومهم تصويراً واقعيّاً بسيطاً ، فجاءت صورهم مادّية مألوفة ، بعيدةً عن المبالغة والغلوّ والإسراف ، مستقاةً من البيئة العربيّة ، ومستمدّة من العالم المحسوس والواقع المُعاش .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ويعدّ شعراء المنصفات من الشعراء المغمورين في العصر الجاهلي وصدر الاسلام والعصر الأموي ، وليسوا من المشهورين وأصحاب الدواوين المعروفين ، أستثني منهم العبّاس ابن مرداس السُّلميّ ، وكعب بن مالك الأنصاري ، وقطريّ بن الفُجاءة المازنيّ ، وكعب بن معدان الأشقريّ ، الذين أسهبت كتب الأدب والتراجم في الحديث عنهم ، فمِنْهُمْ من له ديوان ، ومنهم من ليس له ديوان ولكنْ جُمِعَ شعره .

ويُلاحظ أنّ المنصفات في صدر الاسلام قد تراجعت قليلاً من ناحية فنّية ، فقد قصّرت إذْ ضَعُفَ بناؤها وأسلوبها ، واستحال بعضها إلى ضرب من ضروب النظم لا الإبداع . أمّا في العصر الأموي ، فقد أصاب المنصفات تطوّرٌ بسيط بالقياس إلى ما كانت عليه في صدر الاسلام ، إذْ بدأت تضارع المنصفات الجاهليّة من حيث المقدمة الفنّيّة التي أحسن الشعراء في الربط بينها وبين موضوع القصيدة ، ومن حيث ألفاظها الجزلة المعبّرة عن معاني القوّة والشدّة ، ومن حيث الصّور الشعرية التي بدأت تتجاوز البيئة العربيّة ، لاتّساع الآفاق الاجتماعيّة والسياسيّة ، ولتشعّب المعاني وكثرة الأخيلة في العصر الأموي ، ومن حيث الأوزان والقوافي التي ظلّت تُستَخْدَم على غِرار الأوائل .

إنّ أهم ما يميّز المنصفات عن الموثّبات ـ باعتبارها إحدى مجموعات شعر الحرب ـ ، هو أنّ المنصفات يُراد منها رفع معنويات الفريقين ، إذْ هي بمثابة دعوةٍ إلى السلم ، وكفٌّ عن القتال ، وإخمادٍ لنيران الحرب والأحقاد والأضغان التي أوغرت صدور الفريقين ، لعدم تغلّب أحدهما على الآخر . على حين تُقال الموثبات من أجل إلهاب مشاعر الرجال وتحفيزهم للقتال ، فتكون بذلك عاملاً من عوامل استمرار القتال بين الفريقين ، ليتغلّب أحدُ الفريقين على خصمه .

* * *

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

١٠ أساس البلاغة ، تأليف الإمام العلاّمة جارِ الله أبي القاسم محمود بن عمر الزمخشري ، دار صادر للطباعة والنشر ودار بيروت للطباعة والنشر ، بيروت ، ١٩٦٥م .

٢٠ الأشباه والنظائر من أشعار المتقدّمين والجاهليّة والمخضرمين للخالديّين ، حققه وعلّق عليه الدكتور السيّد محمد يوسف ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة ، ١٩٥٨م .

٣٠ الاشتقاق ، ابن دريد ، جوتنجن ، ألمانيا ، ١٨٥٤م .

٤٠ الإصابة في تمييز الصّحابة ، ابن حجَر العَسْقلاني ، دار الكتب العلميّة ، بيروت ١٩٠٩٥م ، نسخة طبق النسخة المطبوعة سنة ١٨٥٣م .

٥٠ الأصمعيّات ، أبو سعيد عبد الملك بن قُرَيْب الأصمعي ، تحقيق وشرح أحمد محمد شاكر وعبد السلام هارون ، الطبعة الخامسة ، بيروت .

٦٠ الأغاني ، أبو الفرج الأصفهاني ، تحقيق عبد الستّار أحمد فرّاج ، دار الثقافة ، بيروت ، ١٩٦٠م .

٧٠ البيان والتبيين ، تأليف أبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ ، تحقيق وشرح عبد السلام هارون ، مكتبة الخانجي بالقاهرة ومكتبة الهلال ببيروت والمكتب العربي بالكويت ، الطبعة الثالثة ، ١٩٦٨م .

٨٠ تاريخ التراث العربي ، د .فؤاد سوزكين ، نقله إلى العربيّة د .محمود فهمي حجازي ، راجع الترجمة د .عرفة مصطفى ود .سعيد عبد الرحيم ، دار الثقافة والنشر بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ، الرياض ، ١٩٨٣م .

٩٠ تاريخ الطبري ، أبو جعفر محمد بن جرير الطبري ، تحقيق وشرح محمد أبو الفضل إبراهيم ، دار المعارف بمصر ، القاهرة ، ١٩٦٠م .

١٠٠ التذكرة السعديّة في الأشعار العربيّة ، محمد بن عبد الرحمن بن عبد المجيد العُبَيْدي ، تحقيق عبد الله الجبوري ، المكتبة الأهليّة ، بغداد ، ١٩٧٢م .

١١٠ تهذيب التهذيب ، ابن حجر العسقلاني ، دار الفكر للطباعة والنشر ، دمشق ، الطبعة الأولى ، ١٩٨٤م .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

١٢ ـ جمهرة أنساب العرب ، ابن حزم الأندلسيّ ، تحقيق وتعليق عبد السلام هارون ، دار المعارف بمصر ، القاهـــــرة ، ١٩٦٢م .

١٣ ـ جمهرة النسب ، ابن الكلبيّ ، تحقيق محمود فردوس العظم ، دار اليقظة العربيـــة للتأليف والترجمة والنشر ، دمشـــــق ، ١٩٨٨م .

١٤ ـ جوامع السيرة وخمس رسائل أخرى ، ابن حزم ، تحقيق الدكتور إحسان عباس والدكتـــور ناصر الدين الأسد ، ومراجعة أحمد محمد شاكر ، دار المعارف بمصر ، القاهـــرة .

١٥ ـ الحماسة ، تأليف أبي عُبادة الوليد بن عبيد البحتري ، اعتنى بضبطه وتدوين فهارســـه وملحوظاته الأب لويس شيخو اليسوعي ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، الطبعـــــة الثانيــــة ، ١٩٦٧م .

١٦ ـ الحماسة البصريّة ، صدر الدين بن أبي الفرج بن الحسين البصري ، تحقيق مختـــار الدين أحمد ، عالم الكتب ، بيروت ، الطبعة الثالثـــة ، ١٩٨٣م .

١٧ ـ الحماسة الشجريّة ، تأليف ابن الشجري ، تحقيق عبد المعين الملّوحي وأسماء الحمصي ، وزارة الثقافة والسياحة والإرشاد القومي ، دمشـــق ، ١٩٧٠م .

١٨ ـ الحيوان ، الجاحظ ، تحقيق وشرح عبد السلام هارون ، دار الكتاب العربي ، بـــيروت ، الطبعة الثالثـــــة ، ١٩٦٩م .

١٩ ـ خِزانة الأدب ولُبّ لُباب لِسان العرب على شواهد شرح الكافية ، تأليف عبد القـــادر البغدادي ، المطبعة الميريّة ببولاق ، الطبعة الأولــــــى .

٢٠ ـ ديوان أوس بن حجر ، تحقيق وشرح الدكتور محمد يوسف نجم ، دار صادر ، بيـــروت ، الطبعة الثالثـــــة ، ١٩٧٩م .

٢١ ـ ديوان تأبّط شرّاً وأخباره ، جمع وتحقيق وشرح علي ذو الفقار شاكر ، دار الغـــــرب الإسلامي ، بيروت ، الطبعة الأولــــى ، ١٩٨٤م .

٢٢ ـ ديوان حسّان بن ثابت الأنصاري ، دار صادر للطباعة والنشر ودار بيروت للطباعـــــة والنشر ، بـــــيروت ، ١٩٦٦م .

٢٣ ـ ديوان الحماسة لأبي تمّام ، مختصر من شرح التبريزي ، تعليق ومراجعة محمد عبد المنعم خفاجي ، مكتبة محمد علي صبيح ، القاهـــــــرة ، ١٩٥٥م .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

٢٤ . ديوان شعر الخوارج ، جمع وتحقيق الدكتور إحسان عبّاس، دار الشروق ، بيروت ، الطبعة الرابعة ، طبعة مزيدة ومنقّحة ، ١٩٨٢م .

٢٥ . ديوان طَرَفة بن العبد، شرح الأعلم الشنتمري ، تحقيق دُرّية الخطيب ولطفي الصّقّال ، مطبوعات مجمع اللغة العربيّة بدمشق ، ١٩٧٥م .

٢٦ . ديوان عامر بن الطُفَيْل ، رواية أبي بكر محمّد بن القاسم الأنباري عن أبي العبّاس أحمد ابن يحيى ثعلب ، دار صادر ، بيروت ، ١٩٧٩م .

٢٧ . ديوان العبّاس بن مرداس السلمي ، حقّقه الدكتور يحيى الجبوري ، دار الجمهوريّة ، بغداد ، ١٩٦٨م .

٢٨ . ديوان عنترة ، دار بيروت للطباعة والنشر ودار صادر للطباعة والنشر ، بيروت ، ١٩٥٨م .

٢٩ . ديوان الفرزدق ، دار صادر للطباعة والنشر ، بيروت ، ١٩٦٦م .

٣٠ . ديوان كعب بن مالك الأنصاري ، دراسة وتحقيق سامي مكّي العاني ، مكتبة النهضة ، بغداد ، ١٩٦٦م .

٣١ . ديوان نابغة بني شيبان ، مطبعة دار الكتب المصريّة ، القاهرة ، ١٩٣٢م

٣٢ . ديوان الهذليّين ، الدار القوميّة للطباعة والنشر ، القاهرة ، ١٩٦٥م ، نسخة مصوّرة عن طبعة دار الكتب .

٣٣ . الرواية الأدبيّة في بلاد الشام في العصر الأموي ، الدكتور حسين عطوان ، دار الجيل ، بيروت ، الطبعة الأولى ، ١٩٨٨م .

٣٤ . الرَّوْض الأُنُف في تفسير السيرة النبويّة لابن هشام ، السُّهَيْلي ، قدّم له وعلّق عليه وضبطه طه عبد الرؤوف سعد ، مكتبة الكليات الأزهريّة ، القاهرة ، طبعة جديدة ومنقّحة ، ١٩٧١م .

٣٥ . سِمْط اللآلي ، الوزير أبو عبيد البكري الأوْنبي ، نسخه وصحّحه وحقّق ما فيه واستخرجه من بطون دواوين العلم عبد العزيز الميمني ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة ، ١٩٣٦م .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

٣٦ . شاعرات العرب في الجاهليّة والإسلام ، جمعه ورتّبه ووقف على طبعه بشير يموت ، المكتبة الأهليّة ، بيروت ، الطبعة الأولى ، ١٩٣٤م .

٣٧ . شرح دُرّة الغَوّاص في أوهام الخَواص ، الخفاجي ، طُبِعَ بِرُخصة نظارة المعارف الجليلة في مطبعة الجوائب ، القسطنطينية ، الطبعة الأولى ، ١٢٩٩هـ — ١٨٧٩م .

٣٨ . شرح ديوان الحماسة لأبي تمّام ، الخطيب التبريزي ، تحقيق وتعليق محمد مُحيي الدين عبد الحميد ، المكتبة التجاريّة الكبرى ، القاهرة ، ١٩٣٨م .

٣٩ . شرح ديوان الحماسة لأبي تمّام ، المرزوقي ، تحقيق أحمد أمين وعبد السلام هارون ، لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة ، ١٩٥٣م .

٤٠ . شرح ديوان زهير بن أبي سُلْمَى ، صنعه الإمام أبي العباس ثعلب ، الدار القوميّة للطباعة والنشر ، القاهرة ، ١٩٦٤ ، نسخة مصورة عن طبعة دار الكتب سنة ١٩٤٤م .

٤١ . شرح شواهد المغني ، السّيوطي ، تحقيق محمد محمود بن التلامذ التّركزي الشنقيطي ، المطبعة البهيّة ، القاهرة ، ١٩٠٤م .

٤٢ . شرح المعلقات السبع ، الزوزني ، مكتبة المعارف ، بيروت ، الطبعة الخامسة ، طبعة جديدة ، ١٩٨٣م .

٤٣ . الشعر الجاهليّ ، منهج في دراسته وتقويمه ، د . محمد النويهي ، الدار القومية للطباعة والنشر ، القاهرة ، ١٩٦٩م .

٤٤ . شعر الحرب حتى القرن الأول الهجري ، د . نوري حمّودي القيسي ، عالم الكتب ، بيروت ، ١٩٨٦م .

٤٥ . شعر الحرب في أدب العرب في العصرين الأموي والعبّاسي إلى عهد سيف الدولة ، بقلم الدكتور زكي المحاسني ، دار المعارف بمصر ، القاهرة ، ١٩٦١م .

٤٦ . شعر الحرب في العصر الجاهلي ، د . علي الجندي ، مكتبة الجامعة العربية ، بيروت ، الطبعة الثالثة ، ١٩٦٦م .

٤٧ . الشعر في خراسان من الفتح إلى نهاية العصر الأموي ، الدكتور حسين عطوان ، دار الجليل ، بيروت ، الطبعة الثانية ، ١٩٨٩م .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

٤٨. الشعر وأيّام العرب في العصر الجاهلي ، د. عفيف عبد الرحمن ، دار الأندلس ، بيروت ، ١٩٨٤م.

٤٩. الشعر والشعراء ، لابن قتيبة ، تحقيق وشرح أحمد محمد شاكر ، دار المعارف بمصر ، القاهرة ، ١٩٦٦م.

٥٠. شعراء أُمويّون ، دراسة وتحقيق الدكتور نوري حمودي القيسي ، المكتبة الوطنيّة ، بغداد ، ١٩٧٦م.

٥١. الصّحاح ، تاج اللغة وصحاح العربيّة ، تأليف إسماعيل بن حمّاد الجوهري ، تحقيق أحمد عبد الغفور عطّار ، دار العلم للملايين ، بيروت ، الطبعة الثانية ، ١٩٧٩م.

٥٢. الصورة الأدبيّة ، الدكتور مصطفى ناصف ، مكتبة مصر ، القاهرة ، ١٩٥٨م.

٥٣. طبقات فحول الشعراء ، تأليف محمد بن سلاّم الجُمَحي ، شرحه محمود محمّد شاكر ، دار المعارف للطباعة والنشر ، القاهرة ، ١٩٥٢م.

٥٤. العصبيّة القبليّة وأثرها في الشعر الأموي ، الدكتور إحسان النص ، دار الفكر ، دمشق الطبعة الثانية ، ١٩٧٣م.

٥٥. العصر الجاهلي ، د. شوقي ضيف ، دار المعارف بمصر ، القاهرة ، ١٩٦٠م.

٥٦. العِقْد الفريد ، ابن عبد ربّه ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة ، الطبعة الثانية ، ١٩٤٨م.

٥٧. عيون الأخبار ، تأليف ابن قُتَيْبَة الدّينوري ، المؤسسة المصريّة العامّة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر ، القاهرة ، ١٩٦٣م ، نسخة مصوّرة عن طبعة دار الكتب.

٥٨. فحولة الشعراء ، الأصمعي ، شرح وتحقيق ونشر الأساتذة محمد عبد المنعم خفاجي وطه محمد الزيني ، المطبعة المنيريّة بالأزهر ، القاهرة ، الطبعة الأولى ، ١٩٥٣م.

٥٩. الفن ومذاهبه في الشعر العربي ، تأليف الدكتور شوقي ضيف ، دار المعارف بمصر ، القاهرة ، الطبعة التاسعة ، ١٩٧٦م.

٦٠. في الشعر الاسلامي والأموي ، د. عبد القادر القط ، دار النهضة العربيّة للطباعة والنشر ، بيروت ، ١٩٧٩م.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

٦١. في اللّهجات العربيّة ، الدكتور إبراهيم أنيس، مكتبة الأنجلو المصريّة ، القاهرة ، الطبعة السادسة ، ١٩٧٧م.

٦٢. القاموس المحيط ، الفيروزبادي ، دار الفكر ، بيروت ، ١٩٨٣م.

٦٣. قصائد جاهليّة نادرة ، د. يحيى الجبوري ، مؤسّسة الرسالة ، بيروت ، الطبعة الثانية ، ١٩٨٨م.

٦٤. الكامل في التاريخ ، ابن الأثير ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، الطبعة السادسة ، ١٩٨٦م.

٦٥. لِسان العرب ، لابن منظور ، الدار المصريّة للتأليف والترجمة ، القاهرة ، طبعة مصوّرة عن طبعة بولاق .

٦٦. مجلّة الأقلام العراقيّة ، مجلة فكريّة عامّة تُصدرها شهريّاً وزارة الثقافة والإرشاد ، بغداد ، الجزء السادس، السنة الأولى ، رمضان ١٣٨٤هـ — شباط ١٩٦٥م.

٦٧. مَجْمَع الأمثال ، الميْداني ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، دار الجيل ، بيروت ، الطبعة الثانية ، ١٩٨٧م.

٦٨. المُحَبَّر ، لابن حبيب ، رواية أبي سعيد الحسن بن الحسين السُّكّري عن المؤلّف ، تصحيح إيلزة ليختن شتيتر ، حيدر آباد الدكن ، مطبعة جمعيّة دائرة المعارف العثمانيّة ، ١٩٤٢م.

٦٩. المعارف ، ابن قتيبة ، حقّقه وقدّم له الدكتور ثروت عُكاشة ، دار المعارف بمصر ، القاهرة ، الطبعة الرابعة ، ١٩٦٩م.

٧٠. معجم الشعراء ، المرزباني ، تحقيق عبد الستّار أحمد فرّاج ، دار إحياء الكتب العربيّة ، القاهرة ، ١٩٦٠م.

٧١. المُكاثرة عند المذاكرة ، تصنيف جعفر بن محمد بن جعفر الطّيالسي ، عارضه بنسختي الفاتح والإسكوريال وعلّق حواشيه محمد بن تاويت الطّنجي ، أنقرة ، ١٩٥٦م.

٧٢. المُنصفات ، جمع وتحقيق عبد المعين الملّوحي ، وزارة الثقافة والسياحة والإرشاد القومي ، دمشق ، ١٩٦٧م.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

٧٣. موسيقى الشعر، تأليف الدكتور إبراهيم أنيس، دار القلم، بيروت، الطبعة الخامسة، ١٩٨١م.

٧٤. ميزان الذهب في صناعة شعر العرب، السيّد أحمد الهاشمي، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٧٣م.

٧٥. نقائض جوير والفرزدق، أبو عبيدة مَعْمَر بن المُثَنَّى، بيفان، طُبِعَ في مدينة ليدن المحروسة، بمطبعة بريل، ١٩٠٥م.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

The University of Jordan
Faculty of Graudate studies
Department of Arabic

" FAIR POEMS IN ARABIC POETRY from the pre-islamic period to the End of the Omayyad Period "

By :
Abdel Salam A. Al - Mouhtaseb

Supervisor :
Professor / Dr. Husein Atwan

Submitted in partial Fulfillment of the requirments for the degree of master in Arabic Literadive faculty of Arts , University of Jourdan .

1991 - 1992

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ABSTRACT

The topic of the present thesis is "'Fair' poems (Qasidas) in arabic poetry from the pre-islamic period to end of the Omayyad period " .

' Fair' poems are those poems whose composers did justice to their foes as well as to their poeple by being just and honest in relating the hardship both parties end - ured in the battlefield , and in depecting their conditions in times of sheer amity . Perhaps the reason that made the arabs designate these poems as such was the fact that these poems were fashioned in two equal halves between the poet and his foe , and were often composed when neither party had proved victor on the battle ground .

I have selected this particular topic because of its great importance and significance in the ancient Arabic tradition . This topic exhibits that commendable ethical aspect of chivalry poetry . This aspect constitutes a path trodden by few poets who did not devote themselves or restrict their poetry within the confines of mere panegyric and invectives , but those poets were unprejudiced choosing the path of honesty , fairness, and impartiality . For there are few 'fair' poems in arabic poetry and their great merit is not in their number ,but in the excellence of their substance.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

These poems stand out for the distinctive moral effort exerted by the chivalric poet in the battlefield whilst his people severely wounded in combat and an easy prey for predators and Vultures . Nevertheless , that never forgot while extolling his own people's bravery in war , to concede his adversary's daring boldness and bravery likewise .

The present study seeks to trace the above poems in the Arabic poetry from the pre-islamic period to the end of the Omayyad period , and to probe this phenomenon , and find out its effects on arabic literature .

I have divided the present thesis into four chapters. The first of which tracas the history of these poems and their development in arabic poetry .

In the second chapter I have examined the objective and aesthetic bases of these poems, this chapter has been done as follows : First , I have examined the objective bases on which poems were founded and the occasions on which they were composed , relating these poems to life in general . Second , I have dedicated myself to a discussion of these poems from an aesthetic point of view , and the aesthetic features of the poems have also been dealt with .

In the third chapter I have expounded on the life history of threemajor poets who composed'fair' poems, and I have considered their (i.e. the poets) statuses among their

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

contemporaries , I have also shed light on the poetic status of these poems among the rest of their poetry . These poets are the pre-islamic Al- Mufaddal Annokri , Al - Abbas Ibn Mirdas Assoulami who Survived the pre-Islamic and Islamic periods , and the omayyad Ka'ab Ibn Ma'adan Al - Ashkari .

Since ' fair' (Al MUNSIFAT) poems and ' provocative ' (AL MOUATHIBAT) poems (i.e. poems wich arouse feelings of enmity and war) are two distinct lines in war poetry, they are compared and contrastted in the fourth chapter as follows: First , I have discussed the linguistic meaning of ' provocation ' (Attawthib) . Second , I have offered a brief discussion of the origins and development of the latter poems, and their literary meaning . I also draw on poetic models for most famous Arab poetesses explicating and analysing these models . Then I have compared these two directions in poetry in terms of time and effect on war . Third , I have discussed the objective bases of ' provocative ' poems. Finally , the aesthetic characteristics of ' provocative 'poems are examined.

٤١٦٢٧٨

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit